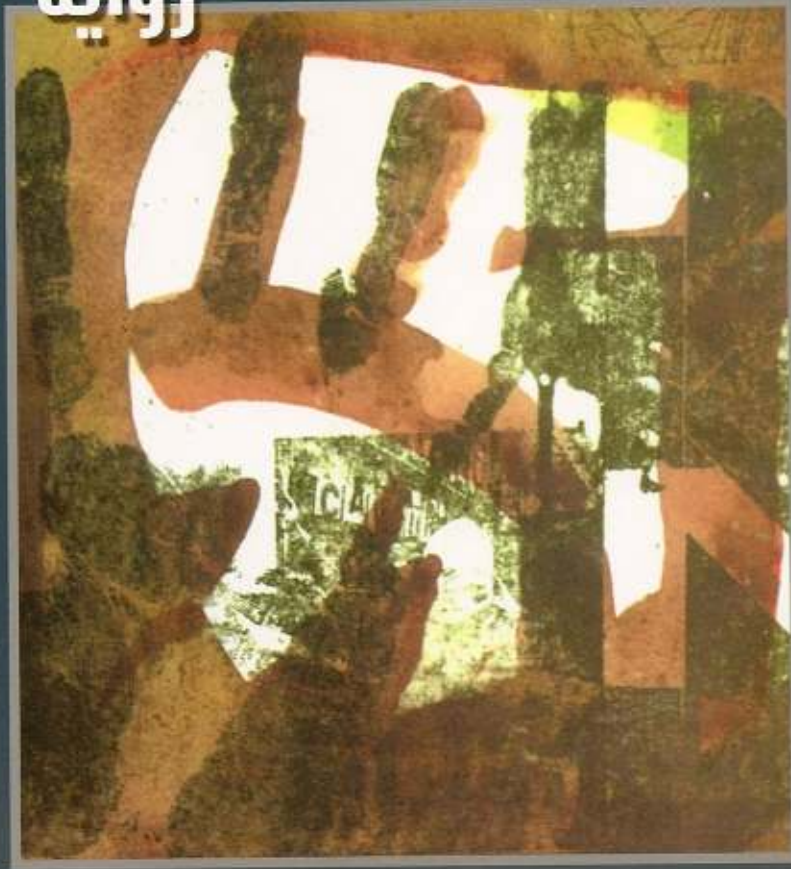


دينا سليم

# الحلم المزدوج

رواية



دار الفؤاد - بيروت

قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية  
Syrian Story

مطانس، دينا سليم

المؤلف : الحلم المزدوج / دينا سليم مطانس، عمان ٢٠٠٣  
dina\_saleem@hotmail.com

عدد الصفحات: (١٦٠)

المواصفات : الروايات / القصص العربية / الروايات العربية  
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٠٣/٨/١٧٩٤)

- تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية
- لوحة الغلاف للفنان العراقي صاحب أحمد

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية : ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

دار القوّة - بيروت

المركز الرئيسي:

كورنيش المزرعة - بناية ريشيرا سنتر

هاتف: (01) 818405 - فاكس: (01) 818406

ص.ب: 146284 بيروت - لبنان

## الإهداء

إلى من تنافسوا على عرش الغربية، وتاهوا في سراديب الغدر وهم أحياء، إلى  
"صارم" في كل زمان ومكان .  
أمل أن يتحوّل الحلم الهارب إلى حقيقة .  
إلى أبنائي فلذات كبدي،  
راهنّت على حياتي من أجل إسعادكم،  
وكتمت على أحزاني طالما كنتم بحاجة إلى ابتسامتي . هوذا إرثي أضعه بين أيديكم كي  
تفتخرون به وإلى الأبد.

دينا سليم

كره الرتابة، حرص على ألا يقع فيها، شغل نفسه عن آفتها، تخوف من عدواها وقيودها والتزاماتها، سريعة خطواته كأنه يسابقها، لا يحاكي أحداً ولا أحد يستطيع محاكاته، حسناته تورق الآخرين، قانع بسيناته غير مبال، يجلس في مقهى يقطع المكان المحاذي للشارع، معتمداً مراقبة ضحاياه، يتسلل في دواخلهم، ينشغل بتقديراته الخيالية عن خاصتهم، يبني قصصه الوهمية حولهم، هناك فقط يأتيه إلهام الفنان، ذلك العجوز وعكازه، تلك المرأة وطأطأة خطواتها على الرصيف المقابل، ينتشل بريق عيني جميلة حائرة، ويضحك مغشياً على كومة لحم متحركاً، فيسارع بتأليف طرفةٍ مواربةٍ... عندما تمر طفلة ما تكتنب عيناه تصرخ الآماً مدفونة، عقيمة، لوحدة، باتت موروثاً، أحزانه أبدية تحاول التنصل من الوباء المجنون، الكوليرا، الطاعون وغيرهما، لم يعد لديهما القدرة على الاستبداد والفتك، إلا أنت يا رفيق الألم، أليس لك رجعة؟

يدخل مسكنه الصغير، المعزول عن صخب الحياة، هذا هو الموجود، خمسون دولاراً شهرياً، عداً ونقداً، تُدفع لمالكيه، لا بأس! إنه لا يحتمل الجيوب المنتفخة، جيوبه مليئة بالقصائد الشعرية التي احتلت مكان الأوراق النقدية، لم تستطع تلك القصائد أن تكون لقمة شهية تسد رمقه فتطري معدته الخاوية، أيام كثيرة أمضاها متجاهلاً إياها، فاقداً الشعور بالجوع، هي كسرة خبز، مبلله بدموع البصل المملح، ربما استعاض مكانها بحبة بندورة حمراء .

دخل حجرته الوضيعة، تحاوره الكتب الملقاه هنا وهناك، جيوش من الأوراق مطروحة كجثة هامدة، تنال منها الرطوبة فتبدو ميللة بدموع ناقمة، تنزوي في الأركان المظلمة، تتلاشى الرؤية عنها، صحف مغلقة تتهاوى بين الرفوف المقدسة منذ سنوات وهي داخل الكتب، هي التي شجعت على اعتزال الحياة الدنيا، يعشق المودة، باحثاً عن الود بين الحبر الرقراق، ما أكثر المرات التي سرق فيها حبيبته، من بين السطور، رأى فيها أفروديت، إلهة الحب والجمال فأسقطت عليه يمين اللوعة والحرمان .

زارها في صخرتها الغارقة بمياه البحر الصافي، كان كاللبن الرائب، بهرته الأمواج المزبدة، دعتة إليها، يلبي طلبها خاشعاً . رمى بجسده المرهق في أعماق المياه، ناشدها إنقاذه من لوعة الوحدة .

"\_ أعوم في مياهك يا أفروديت، امنحيني سرّ الهوى، ارسلني لي سلوى المنى، افرغي رنتي من كأس النوى." "

يلمح وجهها بين بياض الفراغات والنقاط السوداء، يلوّح لها بقلمه، يمد خطاً يجعل خياله أكثر إثارة وتشويقاً، أيام متواصلة من مدّ خطوط الأوهام، الأحلام تصطادها الأوراق، محظور من زيارة أماكنه المقدسه، رغم غزوة إحداهن كل يوم إثنين وخميس، يطوي أحلامه بإحكام للحظات، يعلقها، يتركها شاهدة على الأحداث العابرة الخاسرة .

أين تلك النزوات من الروتين، خلال خمس سنوات عجاف يتهرب منها، ناسياً أو ربما متناسياً مصدر ولادته، من أين أتى، كيف وصل؟ الذكرى الوحيدة هي أنه وجد نفسه هنا . داخل تلك الحجرة الحقبيرة، في مدينة ساحلية كبيرة، تربتها سوداء، تعانقها المياه من كل صوب، ضمن حيّ هادئ لا يتكلم لغته، لغة الضاد التي أصبحت بالنسبة له الضرر والخطر معاً، إنه في (ليماسول<sup>1</sup> (هكذا وبدون مقدمات، لم يعد ينتظر أحداً ولا أحداً ينتظره، ما يتذكره فقط أن لديه إسماءً، ووجوداً، كان من الصعب الاحتفاظ بذلك الوجود . ما زال يملك الروح وذلك القلب، هو في منفى طائراً بلا أجنحة معتقلاً حياتي، مرتحلٌ أبديّ، مُرتزقٌ فخور، حتى لو أجزّ دماغه لأفكار تائهة، مضجرة، ثرثارة في أزمنة الصمت الموحش، وحدته لم تنسه إنسانيته ورأفته بالآخرين، يستأنس بقطة تتربع من أجل لقمة في مدخل داره، يناولها ما تيسر، تشاركه لقمته الوحيدة، حتى إذا شبعتم تمطت مسترخية، تتأهب مغشياً عليها .

قابع ساعة المساء على منضدة خشبية في مقهاه المعهود، يتحايل على وحدته القاتلة، يتابع الوجوه الواجمة، المنهكة، الغاضبة والغريبة، الغريباء هذا المساء كثيرون، وخاصة المتحركون أسراباً، جيئةً وذهاباً، قلماً يلمح وجهاً مألوفاً، لم يعد يقلقه أرق الغربة، جميعهم غرباء، سياح ومواطنون أتوا للاستجمام والاستمتاع، ببلد الزحمة السياحي، يبحثون وينقبون في التاريخ، يشبهونه تماماً، منذ وصوله وهو غارق في التكوين والكائنات .

زار جميع الأماكن، الشوارع الواسعة، الشاطيء الكنيب والأزقة النظيفة، وماذا في ذلك، أليس هو عدو الروتين؟ ما يفعله اليوم لا يكرره غداً، أحرقت الشمس وأمضته الانتظار، امتصته الفوضى، احتضنه التثاقل وسرقه الكسل، لماذا تُهدم الآمال؟ وتعلق الأهداف؟ لقد أجلت المواعيد وألغيت الحسابات . في يوم ماظر اضطر إلى الرحيل، بل

الهرب، طالباً ملائداً في الحياة، فعل كما قالوا دائماً :-

"\_ أرض الله واسعة ."

أيام البرد القارسة لم تثبط فيه عزيمة الفرار والفوز بالنجاة، معاناة عذابات متكررة، تهديد ووعيد، سباه الأرق، تحولت حياته إلى نار وأحلامه إلى رماد، قادتته قدماء حتى الحدود، منهوك القوى، مُقبلاً تراب بلاده بالوداع، يعانق الرياح، فتعلقه عاصفة هوجاء، يتسلق الأسوار العالية، فترميهِ الجدران إلى العراء، تتقاذفه الأمطار وتتلاطمه الأصدا، رأى نفسه على حافة جسرٍ خشبيٍّ يستنشق هواء البحر، يترقب سبات السنين، طفلاً يشبهه يحاول اصطياد سرطانات البحر الشاردة، التي تحتل صخوره الجافة، إنه وقت التزواج، تجلس القرفصاء تحجب أشعة الشمس عن صغارها، تمنحهم الحنان .

أعاد الطفل الكرة تلو الأخرى محاولاً اصطياد إحداهن، لكن الفشل كان دائماً حليفه .

ذهبت به الذكريات إلى طور الطفولة، كان سعيداً، مغروراً في حب أمه، متجاوزاً قسوة أبيه والزمن، ما بين ليلة وضحاها بات كسرطانات البحر، ينزوي في الأركان الضيقة، متاح له الظهور في فصلٍ واحدٍ قصيرٍ فقط حيث يجهر بوحده، أما باقي الفصول فيعود يستترُ داخل الأعماق المظلمة التي تفصله عن غيره من المخلوقات . إنه بلا وليفةٍ يستطيع التزواج معها .

لماذا يا عم لا تساعدني باصطياد إحداهن؟

لا تتعب نفسك بني، لن تدعك تقوى عليها، إنها الآن بالذات بحاجة لأكثر من الطعام، إنها في ذروة السعادة .

في ليلة وضحاها بات صارم من المنسيين، روض نفسه على النسيان، هكذا هو، لن تجدي مواساة الحاضر للماضي، الماضي أصبح سحيقاً، والمستقبل يزداد إيهاماً وغيبية، البعد كان كقبلاً في تغيير طباعه، عله ينال راحة البال أخيراً " : من تكون يا هذا "؟

"\_ لا أدري من أكون ! اقتحم النسيان عقلي وشرد ذهني ."

يغزوه ذات مساء صوتٌ من بعيد، صوت الماضي أبداً: "ما فات قد مات ."

كررها والده العجوز على مسامعه، رجل أرهقته الأيام ولم تردعه حسابات السنين، أحب النساء بقدر حبه للماء، أمضى حياته الخفية يتهادى داخل جلابيبه النظيفة، رافضاً ارتداءها مغضنة، فاحت رائحته العبقة بفارق الحياة، وشعوره بالسعادة الأبدية لم يفارقه، كلما فاز بإحداهن وبادلته ابتسامته الساحرة، ارتدى تحت قدميها ناشداً وصالها .

ارتحلت عنه زوجه، حبيبته وعشيقته الحميمة، تحمل طفلتها بين يديها البيضاوين، تمردت الظروف عليهما فافترقا حتى إنها لم تلوح له مودعة، نسيت مكحلة عينيها على منضدتها بينما يرهقها التفكير في خوض التجربة الأولى لها، هو السفر إلى الفيافي الواسعة :

" \_ علي ملازمة عائلتي، في هجرة وطني، لن أفقد أهلي، أحبائي وأحلام شعبي مدى الدهور كي أمكث في حضنك، إنها أرضي، أرض النخيل، الحضارة، فيها الدفء والحنان، أذهب إليها وأنا مدركة أننا لن نلتقي أبداً بعد هذا اليوم، ربما سيجمعنا الموت ...!"

قالت كلمتها ورحلت مع من حملوا على صدورهم الحنين . داس على قلبه، قضم تعاسته، من حينها أعتصبت سعادته . بطول الرحيل بقيت تصمُ أذنيه حتى آخر يوم في حياته، وفي إغفائه الأولى غافل الذكريات وبدأ ينشد الجديد على بقايا القديم، القديم البائد، رمقته حسناء سمراء، تربعت على عرشه، حاولت المستحيل لإرضائه، ظانة أن الماضي قد قبر في جدران النسيان، لذعتها قبلاته فأنجبت منه ثلاث بنات وفي القبلة الأخيرة ابتهلت أسارير العجوز بولادة صارم، وحيدة، يُشبه أباه في نواياه داخل غياهب الأزمنة المخيفه .

مع صياح الديك، أتخذنا طريق المقابر، بعد أربعين يوماً من ولادته، لم يعد النوم يشاطر الأبوين، اشتد مرض ذات الرئة في صدر ذلك الصغير المسكين، مرض فتاك سبب الغناء، الوجع وفقدان الأمل، استعصى الشفاء فانصرفت الشفاة عن الضحك، خيم الوجوم على وجه الأم، حبست دموعها داخل مآقيها، استفزها الصمت في صلاتها،



أذن المؤذن معلناً صلاة الفجر، انفجرت باكية:

- (رحمتك يا ربي الحنون ...).

أول مرة تعارض رغبة زوج فاقد الصبر:

- أرجوك، دعنا نمنحه فرصة أخيرة، اليوم فقط، علّه يستيقظ من غيبوبته.

- لكنه توفي منذ أربعة أيام أو أكثر ."

- أنا واثقة، من أنه سيستعيد الحياة. الحرارة ما زالت تؤجج جسده .

- " دعينا نمنحه فرصة أخيرة حتى نصل المقبرة، إن أبدى أية حركة فإن الله بالفعل يكون قد منحه الحياة وإذا وصلنا قبل ذلك فلن نرجع إلا وأيدينا خاوية منه ."

تباطأت الأم في مشيتها، انتظرت بفارغ الصبر مشيئة الله :

- يا ربي العظيم، أنت فقط القادر على كل شيء .

نظرت بعيداً، إلى الغطاء المظلم، تبحث عن الأمل تناشد الرب، تدعوه الخلاص، جالت بين الكواكب بنظرات يغلفها الحزن، حتى انتهاء الليل .

أبيضت السماء، غابت الكواكب، بدت واهنة كمن تتضرع إلى الخالق، لم تعد تسمع صيحات الديكة، ابتعدا كثيراً عن البلدة، يمضيان في سبيل النهاية، تبدلت المنازل إلى شاهدات أضرحة، هنا الحسم، مكان دفن الأسرار بحيث تبدو مثل التراب المتراكم، على ظواهر الأشياء وزواياها، تضحك ساخرة وتبقى طي النسيان، تتدحرج مع الريح، تغادر المكان وكأنها أبداً لم تكن، وإن رجعت تستوطنها، تكون أهميتها قد نفذت وبطلت صلاحيتها. أيّ سرٍ مجنون سيواري التراب الآن؟ الأرض جرداء، لا يصلها مطر، تنزحُ عنها الغيوم بسرعة، وإن حدث وارتوت من سحابة ما فلن تروي إلا دماء الضحايا التي تحولت إلى رماد .

- "هدني من روعك يا امرأة، قريباً سيكون الذي فات قد مات ."

تراعت لها المجرفة بوضوح في كفّ زوجها، النهار ابتداءً فعلاً والشمس أصبحت تغزو المكان بأشعتها، مشت خلفه تتعقب قبضة يده الضخمة وأصابعه السمكية، ماذا لو حدث زلزال الآن، ولم لا فمتى إذاً، ما الذي يعيقه؟ أي عامل جغرافي بإمكانه تأخير الحدث؟

العواصف؟! الفيضانات!! السيول! انتني بها يا خالقي، علّها تعترضه وتمنع حدوثه .

الصمت يغلف ذلك الطفل النحيل، قرصت جبينه، هزّت رأسه، شدّت يديه، فتحت عينه وقبلت وجنتيه .

ترمق قوام زوجها من داخل عباءته، كان مفروضاً عليها، إنها تمقته، بل تحقد عليه، ظهر لها كشبح سقّاح، يتجه نحو المذبح، يقدم وحيداً إلى العفاريت والشياطين، لكن لم شبح الموت ما زال يلف ذلك الساكن، أين ضجيجه؟! !

- إبك يا بني، أرجوك أن تبكي، لم يبق لك سوى لحظات.

هزت جسده الهامد، نفخت في فمه، قلبته، حتى أعيها التعب، انفجرت بالبكاء، أصوات تصاعديّة تهز الصمت، انتشر النواح، حول الهدوء إلى صدى والصدى إلى حقيقة، صيحة طفل! توقف الزمان عن الدوران، أمطر الكون صراخاً، ارتعشت القبور، تراجع عزرائيل مبتعداً، يهرول بين القبور، مدركاً أنه لم يعد له مكان ولا شأن هنا .

- "ماذا بك يا امرأة؟ ألم تسمعي صراخه، لقد وهب الله أخيراً الحياة لصارم ."

أبي نداؤها، ارتجف بين يديها، ينشد صدرها جائعاً، لقد فارقت نوبات الموت الأكيدة، غادرته الأبدية، للتو وُلد، محظوظ أنت يا صارم تركك شبح الموت مهزوماً راجعاً، يكتم سرّاً من أسرار الكينونة .

اشتد عود صارم وراح كل صباح يحشر جسده بدشداشته البيضاء، يخطو نحو دجلة، حتى إذا وصل ضفتيه يقوم بخلعها، يرضخ لهيبتها لاهتاً، يخوضهما حتى أعماقهما، يعوم في صمتهما، يستقي من عذوبتهما، يسبل جفنيه مغتبطاً، يستمريء من نشوتها، يلهو ويلعب كباشق، النهر أصبح عالمه، يصنع إبداعه من خلال سحره، يضم مياهه مضاجعاً، مفاخرّاً حتى إذا ما ضجر منه يبقى يرتاد محرابه :

- " لن اكون عبدك أبداً أيها النهر، بل سأكون طفلك الدائم، ظمآن دائماً فأرتوي

لأظماً . " ...

يرجع داره مبللاً ، من قمة رأسه حتى أخص قدميه .

- ماذا تفعل يا بني، ستصاب مجدداً بالزكام، أخشى عليك من ذات الرئة .  
ما زال يذكر صوت أبيه الأجدس، ناهراً والدته :

- " اذهب وافعل ما تشاء، لك مطلق الحرية، استغل الوقت، اذهب ألسنت صبيياً؟  
أريدك أن تسبي لباب جميع صبايا الحيّ .. آه على الدنيا لو يرجع الزمان، لكن  
الذي فات قد مات . "

استاء الأب بسبب نحافته ووهنه، طالما دوى ضجيج شكواه في أذنيه:

- " بقدر ما أحببتك والدتك، استطاعت أن تورثك جسدها النحيل، كم اردت أن ترثك  
قامتي، لياقتي، وهامتي التي كانت مجمل حديث النساء في الحيّ، لا أدري كيف  
ستجذب إليك النسوة ذات العيون الناعسة .. آه اكتفي بما قسمه الله لي ...  
الذي فات مات ولن يعود أبداً . "

امتصت الرياح العابرة روح الأب لتذهب به إلى العالم الآخر . وقف صارم بعينين  
مشدوهتين في صف الرجال . يستقبل المعزين، استغرب دموع النساء وعويلهن، نظر  
إليهن بذهول، ونظرن إليه بإشفاق :

- " مسكين، لقد أصبح يتيماً . "

- يا لسذاجتهن، إعتقن بأنني أصبحت الآن يتيماً . "

لقد أحس باليتم منذ ولادته، من الصعب اختيار الأب، تماماً كما تصعب الدنيا علينا  
عندما ننمو داخل قاذوراتها مرغمين، فلو خيروه لاختار اليتيم من الأب فعلاً .

سيق كالآخرين إلى الحقول الخضراء، الغناء، يرتع فيها فيشعر بظماً الحياة، يبحث  
عن المزيد . من حقه أن يصبو إلى الحرية والرفاهية، أراد أن يصرخ بأعلى صوته  
متخلصاً من همسات الصمت القاتم ومفرداته :

- أسكت، إخرس، لا تتفوه . "

تتملكه رغبة البكاء ، يحرق بها العبرات المسكونة بالألم ، لم يجد نفسه إلا وهو داخل تلك الحقول الخصبة ، مقيداً كالحوان ، طليقاً كالكلاب تحت الشمس الحارقة ، حُرْم عليه الاستئلال حتى بظل شجرة عارية .

في الأوقات العصبية يجلس الأب على قمة الذاكرة ، لأنه هو باني الأمنيات كما أنه هادما ، بيديه يدفع دولاب الحياة وبإبهامه يوقفه ، برغبته تعتق النفوس وبارادته يحرقها ، هو صانع الأفتعة تماماً كما كان السبب في زوالها ، يتقن نصب فزاعه من أبنائه لإفراع الطيور كما يبدع بنحت تماثيل يسجد لها الآخرون ، بارادته يصبحون رواد أمة وبسببه يرفسون كالحمير ، كم من أب عاش ومات وكأنه لم يكن ، بل كان وجوده عائقاً مدمراً .

استغل غياب أبيه فأصبح يلزم حضن أمه ، ينهل منها دلال الصبا والطفولة ، بكى على أيام ضاعت وقف خلالها العجوز عائقاً بينه وبين الحضن الدافئ ، الآن يستطيع الشكوى :

أحس بالبرد يلتهم رأسي وصدري ، ضميني إليك ، أطعمني من كفيك ، إمسحي جبيني بأناملك ، أعيدي إلي طفولتي الضائعة . "

نزع عن وجنتيه الحزن وأستبدله بالحيرة ، شاب يتقمص شخصية ما .

- أيهما أنا وكيف سأبدو عندما ...أكون ...؟ .

أببحر في زوارق رجال التحديات ، أم ينتحل شخصية مُصارعي الثيران ، بشخوصهم ، سيكون رجل المصارعات ، ينساب بين الحقول ، زارعاً وحاصداً مبتعداً عن رجال السياسة ، وربما تستهويه حرفة الصيادين في تقاطع نهريْن عظيمين ، هل يستطيع النجاح بمهام مقدسة داخل المستشفيات ؟ لكنه استطاع أن يغضب أمه عندما اختار أن يكون ، بل قرر أن يكون صانع حكايات .

صُور التمرد تملأ وتسبي لبه ، القدر أقوى من كل شيء حتى من سوط المارد الطاعي ، الشاب المدلل اختار له سبيلاً ، تختلف فيه الآراء ، أمس أصبح في عداد الميتين ، اليوم يهتف للغد، للمستقبل المجهول ، حرفته لا يلزمها إلا ريشة فنان ، يصنع من الكلمة حقيقة ، ومن العبث أملاً ، ومن الفوضى هدفاً ، ينظم بحورها ببسالة

يُهْنَم سطورها باقتدار ويختمها بمسرة وأحزان، يُجملها بالأدراك، يُنعمها بالإحساس ويوقعها بإصرار... فيتركها تتأرجح فتؤجج سامعيها، تفجر الأعماق كأنها المنجنيق، وتُجلل الغموض بالياسمين.. اختار شعراً يحيي ذكراه لو مات، يحرر هواجسه لو عاش، يطبع قبلاته اللاذعة إذا أحب، فتبدو كالوشم، لا يأتي تعديله بالحسبان، نُعت بعبارات التهكم، أتهم بعدم الاتزان، اعتقد أنه رجل داهية، أو ربما بعيد النظر، أو... أو... أو...

- "الأحظ حذقك يا هذا" ... "إنك ذكي برغم وجود سحنة الخجل على قسماتك" ... "أهذا الخجل متعمد من تكون يا هذا؟ . "

- "لماذا لا تكون أكثر وضوحاً؟ إنك شاب عاق مدلل شقي تتقمص جلباب الكبرياء... يا لك من خبيث، تضحك وتساوم على مسرات الآخرين، تذوب سحراً وتذيب الآخرين غلاً، أيها السكير الشاب ماذا ستفعل بعد ان يغزوك شيب السنين "

تُطرب لصوته الشجي وهو يجيب على مجموعة من التساؤلات

- المهم هو أنني لا أشبه ابي .

-3-

يعود ساعة الغروب من حيث أتى، يأبى مراقبة الزوال، يتهرب من النهايات، حتى لو كانت تعود للنهارات يحصي خطواته الوئيدة صيادوا الأسماك يحتلون الصخور المجاورة، يلقون بصنانيرهم، ينتظرون متأملين، ينظر إليهم بعينين حسودتين ويتساءل: (من أين لكم كل هذا الصبر؟ أه لو كنت مثلكم؟

تذهب به الذكريات إلى الماضي البعيد، غزت عقله أحداث الجبهة، أثناء الاستعداد للهجوم، واختراق المدافع، هجوم وقتال، قلق ووجوم، انتظار وتوقع الهجوم، غضب ويأس وبعد المعركة جرحى وقتلى، ومن ثم مفقودين، إما أن يبقوا على حالهم وإما أن يعودوا أدرأجهم مهزومين .

قتل خيرة أصدقائه في الحرب، خدم في الجيش تسع سنوات، فسحات السماء أغلقتها النيران، وتلطخت الأرض بدماء الأبرياء.

أتاه صوت والدته من الماضي البعيد:

- " أرجوكم لا تأخذوا مني وحيدى، ليس لي غيره، إنه صغير، ألا ترون، تعال يا هذا، أنظروا أنه ما زال دون العاشرة من عمره . "
- (ويحك يا أمي ألم تري شاربي المكتظين وذقني المُنبزة)!

لو عرف بأنه سيؤخذ لأعتمر كوفية يغطي بها صلغته وحلق ذقنه وشاربيه ، لكن لا بد من الوداع . إنها الحرب على كل شيء !!

ركضت خلفه مذعورة ، تحمل رغيف الخبز، نزعته من التنور بيديها العجوزين المضطربتين، تخرج من فناء دارها ، تتعجل الخطى نحو صغيرها، تصرخ منادية بأعلى صوتها :

- " صارم !..صارم، خذ كل هذا الرغيف يا بني، واحرص على سلامتك . "

تتخذ البسيطة ملاذًا لعويلها ، تعقرُ رأسها بالتراب، تضرب صدرها، وبعيونها المخضبة تتوسل الله رجوعه سالمًا، تتعقبه كالحارس، تنظر إليه من بين سراب الصحراء، بينما يتابع هو، يستقل القطار المتجه نحو الموت، تختفي آثاره ويختفي من معه، اندفعت الرياح بحركاتها الدائرية تعطل مجال الرؤية، الغبار يغشى عينيها، تتسلل العتمة وتقع ذات البقعة، تنظر من خلال الظلام عبر الأفق البعيد كأنها تراه بعينيها السوداوين تتأمل وجهه، ينتصب أمامها... ترى كم عدد السالمين من تلك الحرب السافرة ؟

لاحظ نظراتها بينما كان يبتعد، حمل لوعتها معه، أخذ دموعها في جيوبه، أكل من طعم يديها، استنشق رائحتها في رغيف الخبز .

أصوات القذائف ترعبه، وأنين الجرحى يوجعه، وجثث الضحايا ترهقه، كُلف بعملية الإحصاء، بعد كل معركة، ونهاية كل معرك .

ينتشل الأنفاس ويضعها داخل رقم ما، داخل دفتر مبلل بالدماء . أسماء الضحايا أصبحت متشابهة تدوّن هي الأخرى بجانب الأرقام، إحصاء بشري لكانت أصبحت في عداد الأموات، ما أسهل الموت في ذلك المكان، جحيم داخل كون يبتعد عن الإنسانية، عظام تحولت إلى اكوام تأخذ عظمة الرجال، وتوسلات عاشقي الأرض رافضي النزوح

عنها. أمواج بشرية تصعق في لحظات تمتد على بساط من التراب، خطوات تتقدم نحو الهاوية فتختفي دون دماء، لا رجاء من البحث.

قال معترضاً:

- " كيف لي إحصاء الجثث بينما تحولت كلها بحجم الحصاة "؟ أي ذنب اقترفته كل تلك الأذرع المبتورة، أي خطأ عويص لم يمهل كل تلك الأقدام من البتر، لقد تغيرت جميع الأمور، لا أدري، يُقدس الإنسان فيها أم تدنس؟ لحظات وقفة مع النفس والروح، أو ربما مع النفس فقط بفقدان الروح، ماذا ستسمى الآن كلمة إنسان؟... لا تليق بالنقصان أو الانفصال! الآن أدرك فقط لم لا تأخذ البشرية لها إلهاً بشرياً، الآلهة أكبر من كل هزيمة، أعظم من كل فجيرة، لا ينقصها أبداً أي عضو إذا كان لها أعضاء، ولا أي روح إذا كانت لها من أرواح .

وتأتيه الذكريات مجدداً:

- "لماذا تتعقبي يا هذا "؟  
 - "أريد معرفة طريق مسلكك، إلى أين ذاهب "؟  
 - "وما أدراك بأني ذاهب، إني لم أعد رجل المذاهب، أعتقت حتى ديني في هذه الحياة . "

تعقبه الرجل، جندي فار، حتى الخيمة، وسط الصحراء، تجمد مكانه عندما رآه يعبى الأوراق دموعاً، يغذي التهنيدات رثاءً، ينظم القصائد، يبيعه لروحه الجائعة للأمان، تخطف الكبت وتنتزع الآلام، يعطرها بعرقه الملوث، يسخر منه القلم إذا ما وقع في الخاتمة، لأنه لم يستطع أن يختمها ولا مرة، تباغته المناورات، فيودعها آمنةً في جيب بزته العسكريه :

قال له الجندي:

- "لينتي أستطيع أن اكون مثلك ...شاعراً فأرسم للعالم معنى المعاناة . "

نام الإثنان في حضن الجبل، أياما متتالية، تحت وطأة البرد القارس، فقدوا أمل النجاة، تاها، لم يعودا قادرين على تعقب الصباحات والمساءات، الساعات... الأيام... والشهور...تسع سنوات مضت :

يغثاله صوت ضابط مرور كان قد قابله في الطريق:

- "ماذا تعطيني يا هذا ، طلبت منك جواز سفرك فتأتيني بأوراق مسودة . "

لم يدرك الضابط أنه استبدل جواز سفره باشعار كتبها بدمه، هي قصة هويته، منحته اسماً، روحاً وذاتاً، تدفعه غريزته بتكوين الحدث، يدونه، يحرقه، حتى المشيب .

انسحبت عينا الجندي رفيقه من الحراسة بينما كان في ساعة صفاء مع النفس، ينزوي بين الضباب، يركن في زاوية مقمرة، يتوهم الرحيل، يستعجل اللقاء مع والدته، تتسربل دموعه في الظلام كلما تذكرها، مشهد متكرر يمنحه الحياة، يعانقها ويستنشق رائحتها، ترى هل ما زالت حية ؟ أم فارقت الحياة من بعده .

تساؤلات عدة أقلقت منامه، أطفأ نور غرفته بعد أن أغلق عليه بابها، تاهب للنوم، كما في كل ليلة، منذ خمس سنوات ينام الليل بطوله وينتظره مجدداً لينام، إلا تلك الليلة، أدار بصره نحو النافذه ينتظر ضوء الفجر ..كان فجرًا مغايرًا !.

التقى القمر بهالات شمس عائدة، اتحدا بعد ليلة مقمرة، رمى نوره على الأمواج الهادئة، خط عمودي يتدرج في الأمواج، ظهر فيها البدر منخفضاً، يلامس الأفق بنوره، يجلس بتعالٍ على مياه متفائلة تحتضنه بغبطة وحنان، فیربت بدوره على الكون مودعاً بسحر وبهاء .

- ما أعظم الكون، وكأني أرى البحر لأول مرة !

-4-

تورقها لحظة سفر، أمضتها تتحضر للمجهول، حياتها مليئة باللحظات المبهمة، تقف على مفترق طرق متعددة الاتجاهات، معظمها مسدودة، إلا طريق واحدة ليس منها أي رجعة، ربما تمنحها نبض الحياة.

وجدت نفسها أمّاً عذراء لطفلين رائعين .. تحولت الفتاة المدللة العاشقة إلى أم بلا شهادات، تحتفل بنفسها كل سنة .

- "ماما إنك جميلة وأجملهن جميعاً، هذه أمي ألا ترونها " ، "من منكم لديه والدة حنونة مثلها ؟" .



عذبتها تلك الكلمات بقدر ما أفرحتها، بقيت أسيرة كلمة، جُمعت في حرفين، بكت كلما سمعتها، اختلستها من أعز الناس، تقمصتها وضاع شبابها داخل ثوبها الحنون، صرخت شقيقتها في لحدها راجية :

- " اذكروني . "

انكفأت تدللها، تعوضها عن وفاة أمهما الحقيقية، أختها الوحيدة، طفلين اثنين فرضا عليها بينما انهمكت تحضرّ ليوم زفافها .

يا لغرابة الكون، مآسي الحياة وفضاظة الأقدار، كلّ رقصة تخصص لأثنين، إلا هي لها رقصتها الوحيدة مرغمة، حتى إنها حبست نفسها في حجرتها تشارك مرآتها ورقصتها المجون، نهرتها غاضبة :

- " أجننتِ يجب أن تلتزمي الأصول، قفي وأرقصي بتحفظ . "

تقف في مكانها مُترددة، ترمق مرآتها صارخة :

- " أكرهك: ... فتجيبها :

- " لمَ الأنّي مرشدتك ؟ "

الرياح هي التي تعصف بي فتهزني، أستدير معها استدارة تلو الأخرى، أستسلم لها، تُقلني حيث تريد ثم تتركني أتوسط الهباء .

علموها ألا تدور عكس الريح، ففعلت !

لكل كائن دورة، دورة واحدة، لكل جولة مساحة ومحيط، منها مسافات تفرش بالورد ومنها تغرق بالدماء .! لكل مدار موسم وللمواسم ظواهر طبيعیه، تارة تُغدق وتارة تغرق... أسراب الطيور تتأثر من الكسوف وتتأذى بالخسوف، لكنها تبقى دائماً تحلق، وتحتل السماء .

يا سماء الأرض هيهات ترتحلين لمَ لا تتحلين بالصبر، من المسؤول عن الإختيار وتقسيم اللحظات، ولمَ لم تكن القسمة متساوية أبداً ؟

إن ذلك من شأن الله تعالى، إنه وحده قادر على عدم إنحراف الدوران ... حينها فقط تُضمن الأبدية ويبقى الخلود .

أمسكت حقيبتها المدرسية وذهبت بها إلى الرواق، حيث سلة المهملات، تمزق كتبها، دفاترها وكل ما يتعلق بالمعهد، ختمت سنتها الأخيرة بنجاح باهر، لم تعد تفكر بكراريس الدراسة ولا بتدوين المحاضرات، أخيراً تخلصت من ذلك العبء ، سنتان من الإنتظار، ستمضي إلى بيت الزوجية... خطت لذلك اليوم المنشود !

- "إنشاء أسرة، ذلك شيء عظيم "قالت لها الميس فيكتوريا ، "هبة الله : الأطفال والعيشة الهنيئة . "

وعندما عاينت منزل الزوجية تنازلت راضية :

- " إنه صغير، ستعتادين عليه حتى يفرجها ربنا وننتقل إلى منزل آخر فسيح " إنها كلمات خطيبها...

لهفتها على بناء عش البلبل خاصتها أنساها التفاصيل الصغيرة الهامة، قالوا الحب الأول وهم كبير يجب الحذر منه ، أجاب أحد العشاق :

- " لم الحذر، وهل المحذور يحذر؟ ما أجمل أن نغرق في هذا الوهم !

طارت بأجنحتها نحو غرفتها، توضع حقائب السفر، إنه شهر العسل، تختار الجديد المميز والمثير:

- " لا حياء بعد الآن . " قالت:

- " إنني أبدأ حياة جديدة يا أماه، لن أبدأها وأنا صامته . "

- " عيب ، حرام وخطر ما تفعلينه يا ابنتي . "

- " هل الحب عيب ؟ العشق حرام والزواج خطر . !!! "

ما امهر تعليم الكبت، وممارسة أسلوب عدم البوح والصراحة، تعاليم تقليدية مستنسخة، تقلل الحذر من مخاطر الحياة .

توارت تحت غطائها مبتسمة، تنتظر يوم سعادتها بفارغ الصبر .

يطلع عليها آخر نهار قبل يوم زفافها، الجميع منهمك، يتراکضون بين الغرف وباحة استقبال الضيوف، هنا ستجلس العروس، هنا ستوضع الزهور، الباب الخارجي سيفتح على مصراعيه :  
- " لا تنسوا الشموع . " صرخت:

- " اشطفوا الساحة الخارجية ونسقوا الأشجار في الأحواض ... "

- " هل تعتقدين بأنها ستكون سعيدة مع خطيبها، زوج المستقبل "، تسأل إحدى الجارات والدتها :

- " ولمَ لا إنها تحبه كثيراً . "

- " ليس مهماً أن تحبه هي ، بل هو . "

- " ولم يقترن بها أذن . "

- " لا أدري ! "

- " العشرة تولد الحب وابنتي محبوبة ... ! "

-5-

جمدت الأم مكانها، بينما تجمد الدم في عروق "شموس".  
أحتلت ساحة بيتها دورية من الشرطة، تباعدت النظرات لتلتصق بالرجال الغرباء، إنها تستنشق رائحة غريبة بينما سارعوا هم إلى داخل الدار، لهفة المعرفة أدت بها إلى التلعثم، الكلمات سقطت مرتجفة ، بعثرها الهواء، لم يسمعها أحد، خانتها شجاعته، علق لسانها، واضطربت معدتها ...

- " ماذا هناك، ما الذي حصل ؟ "

جاءوا ينقلون لها خبر مقتل شقيقتها على يد زوجها المدمن، قتلت بدم بارد بينما

تحاول إخفاء سر إيمانه عن العائلة، حاول استفزازها، على مرأى من عيني طفليها، حملتهما تحاول التخلص منه هاربة، التقطها من عنقها فهوت على الأرض وهي ما تزال تحتضن صغيريها، طعنها بسكين حاد، طعنها حتى الموت.

تحولت العيون إلى جمر والضحكات إلى بكاء، صراخ الطفلين أعمى الأبصار، أصبحت "شموس" تعيش غريبة، بين العائلة المكوّنة من أم كسرت ظهرها الهموم، وطفلين يُتّما غدرًا .

هربت منها الأحلام، نزحت عنها الآمال، وظلت تعيش في جرح دائم النزف. أفرغت ثياب عرسها من الحقيبة، حقيبة السفر، لتضعها في أعلى خزانها، ومن ثم إلى مخزن الدار، تقبع في الظلام، سجينّة العث، رهينة الأعوام، خبت شعلتها مع هالات القمر، تقبع وسط أشواك الزهر، تباعد الحلم، خسرت المعركة، نامت تستقبل الريح بصمت الميتين .

كبر الطفلان، أصبغا رجلين، يتحسسان أشواك ذقنيهما مسرورين، أندفعا نحو المستقبل مبتهجان، تحققت آمالهما، أخيراً سيقدمان ثمرة نجاحهما لأمهما .

- " بفضلك يا أماه "

كم كانت ثقيلة هي الأيام، أجهدها ساعاتها الطويلة، بقيت صامدة، شامخة، تنظر نحو القمة، الجبال العالية كانت مثالها الأعلى، والخضرة التي كستها منحتها التفاؤل والإستمرار .

اتخذت الطريق الترابي نحو مقبرة المدينة، الصبيان يهرولان خلفها، أرهقتها رائحة المقابر، البخور يملأ المكان، اليوم عيد ويجب تعليق المباخر وتزيين الطرقات بالأزهار، قبران إثنان ينعمان بهذه الجنة المزهرة، تحيط بهما من كل صوب أشجار الصنوبر، لقبري الأم والجدة.

اليوم هو الأحد، بداية قصة جديدة، أبطالها الشرعيون إثنان، إنها ساعة الغروب، وإعلان نهاية يوم آخر حافل بالتضحيات، أليست الوحدة تضحية ؟ ضحيتها المعزول عن الحياة !أيام ونيدة، رتيبة تدوسها الخطوات الثقيلة . البحث عن الحب، عادة قلما

تكون تقليدية، لو أنه أدرك بأن زحف الطفولة سيقوده نحو النزوح عن الوطن راجلاً لرفض الحبي. هل عادة الحب تعد من المحرمات، إنها ليست بعادة؟ ما هي إذن؟ إنها أولى الوصايا العشر، لم يقل أكره، بل ذكرها بتكرار مدوٍ :

- " أحب " .

وردت واضحة في جميع الكتب السماوية، أهم شرائع حياة الدنيا .وما الحب إلا الإعتناء بالآخرين، وتجديد روح الألفة، الروح التي تحولت مع مرور السنين إلى جليد .إنه الإنغماس برويا داخل الحاسة السادسة، فيبدأ التعامل بالحدس، تلاحظ كل ما هو معزول، بعيد ومتروك .

تجربة تحوّل خلاقة لولادة الجديد، جسر متين نحو الحقيقة، ضد الكراهية، وعبودية لذيفة الطعام، تسبك كلبشاتها بأساور من الذهب الخالص .كلما أعتني بها ازدادت لمعاناً، هيبة وقيمة .

لأول مرة منذ شهور خلت انفردت تحتسي قهوتها الصباحية دون أن تقلب الفنجان، للتو كسرت تلك العادة المتأصلة داخلها، بحثت داخل خيوط القهوة عن المجهول، أشكال عديدة زادت من عصبيتها، لم تفلح في فك رموزها، عن أي شيء تبحث طوال هذه المدة؟ وهل ظهر أخيراً ذلك الفارس المنشود، تعلم أنه لا يملك حصاناً، لا أبيض ولا أسود، هل من فارس قابع في عصر السرعة، عصرنا؟ الرحلة في الحياة لم تعد بحاجة إلى حصان :

- من تكون؟

- أنا بطل رقصتك الجديدة، التحف الأرض داخل حجرة صغيرة، أحتسي المنكر، ربما مثل الشاي، أملك ثلاثة أشياء، أحملها معي، إثنان من الغربية والثالث قبل أيام خلت :

- قلب، عقل، و...

- وماذا؟

- أفضل الاحتفاظ به لنفستي!

- يا لك من رجل غامض!

- بل أصبحت الآن أحيا الحقيقة!

- ماذا أصبحت تملك؟

- أصبحت أملك الكيان منذ عرفتك...

لقد حلمت مراراً إنها تمتطي ذلك الحصان الأصيل، تلتجىء حيث لا تعلم، يركض بها نحو.. الحرية ..الاستقلال .لم تعلم كُنه الحلم المتكرر، أهي أمنيات، أم أحاسيس؟ ربما رغبة جامحة في التراجع نحو المراهقة.  
يعكر صفوها دائماً رؤية هذين الفتيين يركضان خلفها يحاولان الإمساك بها، لقد أحست بالحرية من خلال تكرار ذلك الحلم، " رقصة الحصان الأبيض ".

غمرتها السعادة، بدت لها مضيئة، مشجعة، فانطلقت تسعى وراء... زمان ... غير زمانها، تصبو إلى مكان يختلف عن أماكنها الرتيبة .

قضت سنوات طوال تنام وتصحو على موسيقى ملانكية، ألحان هادئة تساعدها على الاسترخاء، تسبح بها ليلاً ، حتى مطلع الفجر، ترحل بها بعيداً، تمتطي ظهر ذلك الحصان حيث لا شوارع مكتظة، لا أنفاق يستتر داخلها، ولا جسور. لم تعد تحتمل رؤية مستخدميها، إحياء الأماكن العالية المزيفة، حيث التخلي عن الحياة .

رحلت بشجاعة داخل النوتات الكلاسيكية، لا تتوقف عند إشارات المرور، تبحث عن القديم، الطرب الحقيقي، " أين عمري " الخالدة غنتها، عملاقة فاخفت من أمامها خجلاً العجائز الشمط.

سئلت وصمتت أمام السؤال الصعب:

- أين هي جذورك يا هذي ؟ لم تعلم، بل علمت وصمتت متجاهلة، بلعت كلمتها، ولم تكمل حديثها .

- حسناً سأخذك إذا إلى حياة جديدة بين المجرات.
- تناثرت من تحتها السحب، تلاًلاً وجهها بوميض كوكب زحل، تنحى مبتسماً لها .
- لمَ تبتعدين عني بهذه السرعة، دعيني أشبع من رؤيتك!
- ضحك لها المشتري متفاخرًا بعظمته :
- عديني فهنا هو موطن السلام.
- رمقها أورانوس معاتباً .
- اقصديني حيث لا شجار ولا عتاب، انتهى عصر العراك عندما، تعالي واجلسي على عرشك.
- كيف أستطيع الجلوس على عرش الأنبياء إنه موطنهم والملائكة .
- لم يحدد بداية لهذه الرحلة، لأنها على يقين أن لكل بداية نهاية. تهربت منها بسلاسة، رفضت المسار، لا نهايات بعد اليوم!
- تعالي نستريح عند المريخ قليلاً، يجب أن تمنحيه من نظراتك الجميلة فيزداد جمالاً وتألّقاً، إنها لحظة عابرة لا خسارة فيها ...
- قال لها حصانها الأبيض.
- لا اريد الابتعاد عن كوكب الأرض، هناك ملائكة في انتظاري ...
- " هذه الرحلة عدّوها التردد يا أنت . "
- ترأى لها ذلك الحصان كطاغية يُملّي عليها أوامره، أخذها في ثورة سهيله، يعلو بها مبتعداً إلى المجهول، محاطة بروعة ما بعدها روعة، يغتصبها، جمال لا يبادلّه جمال ..سحر الكون والكينونة، عظمة الربّ الخالق، مروج أنوار الكواكب. يبهرها نبتون، يحمل عصاهُ السحرية، يأسرها جمال عطارده في سحره .
- " أين هو بلوتون صانع أحاديث الخيال ، لمَ لا أراه ؟ . "

" \_ لم يحتجب عن التوهج؟ نوره الهادئ سببُ إلهام الشعراء . "

أيقنت أنها تبتعد عن أكاذيب الأساطير .

كرهت العودة بعد أن تذوقت معنى الحرية ، مضت في الجنوح بعيدا إلى ما لا نهاية،  
حيث قوة النيازك وعظمة الكون.

النجوم سوف تهوي في يوم من الأيام ، بعد آلاف السنين تُلغى وتنتهي، حيث  
مسقطها هو كوكب الأرض، تحتله آبار خاصة تحتوي داخلها النهايات، نهاية كل  
شيء، بالإمكان ترقب ساعة الصفر من الأعلى، ومراقبة الزوال والإندثار... وإطلال  
الأشياء.

أوما الصباح مختالا ، خدعتها إشارة الضوء الأبيض، تُرفرف لها بالاحاح، تخترق  
جفونها المغلقة، ينبعث الدفء في وجهها. لم تعد الستائر المسدلة تعيق تسللها، تقتحم  
عبر الأباجورات، إنه الصباح ..

- لم أنتِ غاضبة يا شمس؟ لقد فقدتُ السبيل إليك!

- ما من أحد يحب زيارتي ، فعندي تنتهي الأمور.

- إنك كوكب النهايات إذا .

- بل أنا كوكب ..اليقين، إرجعي من حيث اتيت فإني أقوم بزيارتك الآن.

عادت وحيدة، اسكنتها الريح داخل مضجعها، تغطيها أناملها الرقيقة، تغلق عليها  
بابها، توصل النافذة وتسدل الستائر. جحظت بها الأرض، نهرتها غاضبةً ، تلومها  
معاتبةً .

" \_ هنا تبدأين رقصتك الجديدة، ينتظرك ملهم بفارغ الصبر، سجين مرهق،  
يربطكما خيط رفيع، بصيص أمل، وباعث للحرية.

اتصفت بالعناد، أعادت حسابات نفسها، بالرغم من كرهها الكبير للأرقام، رموز



مثيرة تلتصق بالأذهان، إشارات مجردة بعيدة عن المشاعر، إدراكات حسية دقيقة، أشد واقعية من العواطف القلبية ومن وهم الحب، أهو فعلاً وهم أم انه حالة خاصة تتصف بنوع نادر من العادات، حالة تمتزج بمذاقات متناقضة، منها الحلو والمر في آن واحد، أن تعتاد على فعل الأشياء مراراً وتكراراً، يعني ذلك أنك أصبحت طريداً للنزوات؟ وهل الحب نزوة؟ وأي نزوة تلك التي بها كل هذه القوة؟ الإحساس بتوقف العمر عن الدوران، التوقف المفاجئ، بدون استعمال الكوابح، جنوحاً إلى، ربما الهاوية أو قمة السعادة، شتان ما بينهما. للحالتين نفس المقاييس والمعايي، الهلاك في الحب فقدان الحياة، إذا توقف كوكبنا فعلاً عن دورانه ونزواته، لا يشعر لا الميت ولا العاشق بهما، معنى ذلك عدم الوصول إلى حد الشيخوخة البائسة، بل هناك شباب متواصل، لا يخلو من الإحساس بالمراهقة الدائمة.

رفضت هوية الحب المنتظر، أخافتها التفاصيل الدقيقة، الآن وقبل وصول القمة، قمة الهلاك المخيفة وقمة الحب المرعبة، الانسحاب أسلم، قبل الهزيمة، في أرض محايد .

-7-

قررت نسيان أمر ذلك الشقي، غادرت في رحلة طويلة، تبحث فيها عن هويتها، تجوب الأقطار مبتسمة وصراخ الانتصار يغرقها، تنتقل متعمدة من مكان إلى آخر، إلى الخلاء، الفراغ، عَدَم الأشياء، ربما هناك تستقي من ماء .. الحرية ..

ما أفضح أن تعيش في ضباب الهزيمة، فسراب الحُلم والواقع، تسير بخطوات نحو الأمر الناهي، نحو العبودية، نحو المجهول ...

" أين كنتِ ؟"  
 " كنت على سفر ."  
 " ظننتك مسافراً ؟"  
 " لقد أجلتُ سفري ."  
 " لماذا ؟ وإلى متى ؟ ."  
 " لا أريد الابتعاد عنك .. أريد أن اراك أولاً قبل الرحيل ."

أي تفكير أخرق هذا الذي يأسر قلبين تائهين، داخل أوكار العبودية. أعتبرها حبيبته من اللحظة الاولى، إحساس غريب بالتواصل في الحياة .

أستفاق من إدمان الفوضى واللامبالاة، ليقع في إدمان صوتها، أصبح يترقب المواعيد، يحصي الفترات بين كل وجبة وأخرى بين اللقاء الأول والثاني عشرة أيام.

" كيف لك تذكر ذلك ؟"  
 " لأني أول ما سمعتُ صوتك، أصبحت إنساناً يترقبُ الزمن ."  
 " وماذا كنتَ قبل ذلك ؟"  
 " صعلوك ."  
 " بحثت عن الصعاليك في كتب الأدب والتاريخ، أيعقل أنك امتدادٌ لهم ؟ " ما الذي يربطك بهم ؟"  
 " من ؟"  
 " أصدقاؤك، الصعاليك ..."  
 " وفي اللقاء الثاني .."  
 " لقد قصدتها فعلاً ."  
 " لا اصدقك .. هل تذكر ما قلته ؟"  
 " نعم بالتأكيد .. قلت بأن صوتك جميل جداً .."  
 " أتغازلني أم ماذا ؟"  
 " أغازلك فعلاً ."  
 " لا بد أنك ثمل ."  
 " جميعنا نشرب الماء ."  
 " لا أقصد الماء .. بل الكحول ."  
 " نعم إنني أشرب الكحول .. الكأس الآن أمامي ألم أقل لك إنني صعلوك ؟ " .

أحست وكأنه يلهو بها، أصيبت بخيبة أمل، أمضت الليل بطوله تكفكف دموعها .

مرت أيام أدركت فيها أنه فقير، على موعد دائم مع الفقر.

" لماذا لا تقولين لي هذه الكلمة ؟"  
 " أي كلمة ؟"  
 " حبيبي، ألم أقل لك يا حبيبتي ؟"  
 " أعدك بأنني سأقولها لك عندما أكون جاهزة لقولها ."

-8-

تحقق الحلم أخيراً، أم هي مكيدة أخرى تتربص بها ؟ تعبت من دور الضحية الدائمة، اي رقصة تنتظرها الآن ؟

اتجه نحوها بابتسامته الخفية، وحدها تراها، نظراته تستقر وراء نظارتيه، أدركتها، أحست بما يختلج في ذلك الصدر، إنه بارع بتسكين نار الشوق داخله، خشيت أن يصاب فجأة بانفصام فيهبوي عليها لاحتضانها أمام المارة، تأمل ملامحها، أكيد إنه رآها ، بدت له مالوفة، إنها هي ...نعم هو طيفها ..أحس رعشة قلبها عن بعد، إنها حبيبته .

" \_ اهلاً بك . ..."

نعم إنها هي، يا إلهي كم أنت قريبة مني الآن، ما أجملك ؟

راحت تجوب جسده، انزلت عيناها إلى خاصرته ثم ارتفعت بهما إلى صدره، عنقه، فمه وأنفه، سبحت في فضائه لتستقر أخيراً عند محطتها، فتكشف حقيقته، إنها لغة العيون . أخذ كفيها بين يديه المرتجفتين :

" \_ انهما أجمل يدين رأيتهما حتى الآن ..."

كأن العبارات تهرب منهما، تتسرب داخلهما، خيم عليهما الصمت، فسحة مألوفة .. فسحة حب . النظرات تتكلم، يتجاهلان عيون الآخرين.

لم يكن حباً عابراً بل هي وحدها اللحظات التي كانت قصيرة، لم تفارقه ملامح الحزن حتى أثناء اللقاء، أمضيا اللحظات القليلة يسعيان إلى قطرة ..سعادة .

" \_ لماذا انت حزين يا "صارم"؟ . "

" \_ حزين لأنني سأفارقك بعد لحظات . "

سلكت طريق عودتها ..تعبر الحدود إلى وطن آخر ..وطنها ...تستقل طائرة عبر الريح، حيث الجانب الآخر، تطير بها نحو الغمام، حيث مسكنها ينبوع الحب والحنان، رواها تحتل العالم، تعكس نظراتها، تراقب، تشرف بشغف نحو بطل رقصتها، كانت

بداية الرقص على الجمر .

غادرها مودّعاً، تعمد ألا يلتفت خلفه، إنه على يقين بأن نظراتها الكئيبة تلاحقه، غاب بين الجموع الغفيرة، ودّعها في سره، طابعاً قبلته في الهواء ..

" \_ مع السلامة ...حبيبي الغالية . "

أخذ طريق العودة إلى داره ..يغمره الإحساس بالغربة .

رجعت إلى ابنيها، أغرقتهما دموعاً، تتحسسهما، تضمهما إليها فتفاجأ بأنهما يفوقانها طولاً وعرضاً :

" \_ ما أجملكما، كم كبرتما في غيابي . "

" \_ إنها بضعة أيام فقط يا خالتي، لقد كبرنا منذ زمن، كأنك تريننا لأول مرة . "

هذه المرة الأولى التي تسمع بها كلمة "خالتي " ترى لماذا الآن ؟ ألم تعد أمهما، ربما أحسا بأنها لم تعد تصلح لها هذه الكلمة .

أي شعور غريب ينتاب المرء عندما يصطدم بحقيقة ما، ترغمه على استبدال أدواره في الحياة، أدوار أخذت من عمره دموعاً مداراة، تعود عليها، أحبها، لكن المرء فيها هو عندما يكتشف أن لهذه الأدوار كياناً ينتهي بلحظة حقيقة. كل منا يلهث وراء الحقيقة، في الأسفار والترحال، الشباب والشيوخة، الطفولة والكهولة، لو أدركنا أن البحث كان فاشلاً لكففنا عن البحث ...لأنها تكمن في أقرب منطقة من دواخلنا ...

لو جُبنا اجسادنا دون تسكع، جسسنا نبضنا دون زيف، بحرية ضمير، فلن نندم، نلج قمة الراحة الأبدية، بشجاعة ..نحو الحقيقة .

-9-

دخلت "ساجدة "حجرة أخيها المتواضعة، التقيا بعد غربة دامت أكثر من خمس سنوات، تأملت المكان الصغير، دهشت لحاله، تعثرت الكلمات لتأخذ مكانها العبرات :

" \_ ويلي عليك أخي الوحيد، ماذا فعلت بك الغربية، بالكاد تعرفت عليك ."

" \_ أخبريني عن حبيبتي الصغيرتين ."

" \_ صغيرتاك لم تعودا صغيرتين، أصبحتا في عمر الورود ."

نبرته الحنونة أحتلت مساحة صوته بالكامل عندما تكلم عن حبيبته، ينبوع ساكن يتدفق فجأة، إيقاعات حنين الحاضر باتت جارحة، أوجاع الماضي قاتلة وغموض المستقبل مهيب، ربما أحست ساجدة بالغيرة أو الإحباط، أو ربما صدمت بواقع مرير، وتجاهله المتعمد لإنسان ما :

" \_ من تكون هذه الجميلة، صاحبة الصورة ؟"

أجابها بعمق لهفة العاشق ولهفة التحدي المجنون :

" \_ إنها حبيبتي ."

" \_ لكن ...أنسيت أن لك زوجة .!"

" \_ لقد نسيت أمر تلك الزوجة، منذ أمد بعيد، منذ رحيلي ."

استلقت ساجدة على فرشاة الإسفنج، يورقها وابل من الأسئلة، تأملت صاحبة الصورة، احتارت لهذه العيون الحزينة .

" \_ أترين عينيها ، كطفل ينتشل من أعماق بئر بعد استغاثته المميته ."

ثرى ما هو سر جمال تلك المرأة، رغم بلوغها السن الحرجة .

" \_ هل سبق لك ورأيتِ جمالاً كهذا ؟"

" - ما هو لون شعرها المتموج ؟"

أموت في عبق شعرها، أسبح في تموجاته، أقلق تفكيراً بنعومتها، لباسها يدل على يسر حالها. وذلك القرط الذهبي المتدلي، إنها ملاك يعيش في عالم أرستقراطي، أحلم بها عارية تسبح في الفضاء، من غير لباسها الأسود هذا، يرونها بقناعها المزيف للحياة، متطلباتها ! أراها شاردة كغزال يبحث عن طريق الخلاص، بينما أتوق إليها عروساً مزينة بأقراط الحجارة الكريمة، مدموغة بالماس، تطأ أسوار الجواهر، تلتحف اللؤلؤ ...

" أبهذا القدر تحبها؟ "

" بل أعشقها وأهيم بها، إنها إلهتي . "

" لا بد أن لها اسماً رائعاً . "

" نعم أجمل ما تفوهت به الألسن . إنها "شهد الملكات . "

" ما هي جنسيتها ؟ . "

" جنسية جميع شعوب الأرض، طاغية تعلق مشنقتي، انتهازية تنزف دمي، متسامحة تورق مضجعي، اشتراكية تشاركني وحدتي، رأسمالية تستحوذ على جميع أملاكي، دكتاتورية تحتل خاصتي، وديعة تهديء من روعي، تنتمي إلى حزب الأحرار المتمردين فتتمرد على تاريخ وجودي، إقطاعية تفتتق أجزائي، ملكية بها تتوج مملكتي . "

" ماذا دهاك أخي ...؟ "

" إنني طائر المنفى إبحث عن مملكة تأويني، أريد نفخ روح "جلاتيا (1) داخلي، أحيأ معها داخل مملكتي، حينها فقط أجد وطني . "

" وطنك موجود، ينتظر رجوعك ...الصبر جميل . "

" أي وطن هذا الذي رماني جائعاً، سلبنى اسمي وكبريائي، ضحكتي وكياني . "

" إنه الطاغية . "

أمضت الليل تغمره بأسئلتها، أشياء كثيرة مبهمة حيرتها، تغير أحوال أخيها المفاجئة، خشيت أن يكون الفقر والعوز السبب في ذلك، يمكن للحرمان أن يكون طاغية حقيقياً للنفس، أي مصلحة له في قصة الحب هذه ؟

" الحب الحقيقي لا مصالح فيه يا أختي "

عبثت في حجرته الصغيرة بينما هو يجهز طعام العشاء، بحثت في أركانها،

أستنشقت رائحة تلك الجميلة، وجدت لمساتها في كل مكان ..حتى بين سطور الصفحات البيضاء :

- عافاك يا من تكونين، لقد استطعت بناء مملكة داخل قلب وحيد حزين!

كم تمنيت أن يكون لقاؤهما بعيداً عن تلك الغرفة، لئلا يكون ذلك سبباً مقنعاً لتلك السيدة المجهولة التنصل من وعودها والتهرب منها، كاسرة في ذلك القلب المحروم .

" من أين جاءت تلك الحورية، أم إنها بالفعل "جالاتيا " أوهامك ؟ "

" نعم، لقد جاءت من الأحلام، على ظهر راقصها، حصانها الأبيض، سُنَّها المجرّات، أتت تودع في إصبعي خاتم الخلاص من العبودية، تبني لي مملكة من الأسرار، تراقصني على نغمات الصفحات، تتمايل مع نسيمات الريح الفيحاء، تخاطبني حتى ساعات الصباح، تورقني، تنهيني. انطرح مغشياً عليّ لحظة ظهورها، كأني أسجد لها، تأتيني من بعيد، من فوق، تتدرج بخفة، تورق سكينه ملاذي، أمقت إيابها، أفخر بوجودها، إنها نقطة تحولي إلى الاستمرار في الحياة، كأني ولدت منذ رأيتها، وضعتني في القمة، أهلكتي بشفتيها "

حدثها صارم عن حبيبته طوال الليل، أصداء إسمها ما زالت تتردد على مسامع " ساجدة "، حتى عندما غادرته راجعة لم تتوقف عن التفكير فيها، رأت بها الرحمة والبراءة، تساند شقيقها في آلامه ووحدته، توأزره همومه وتشاركه أحزانه وأفراحه .

لم تستطع مصارحته عن سبب مجيئها، في رحلتها المضنيه، عبر الصحاري، تقطع المسافات الطويلة، لتجده غارقاً في حياة أخرى، حياة الترف في مكوكب العوز والفقر المدقع، حياة الحقيقة من خلال مساحة متاهة الأوهام، أصبحت رسائله تحمل عنواناً، احتجب الدمع من مقلتيه، تددت غيوم الأحزان وجفت العبرات داخل صفحة مُغرقة بالهيام. رفضت حجب الرؤية عنه فيحزن، لم ترد إيقاظه من سباته، لم تستطع سلبه مجدافيه وهو ما يزال في بداية رحلته، دعتة يخوضها بحماسة واغترباط، لو أخبرته بما يختلج في صدرها لتوقف زورقه حائراً، وتصبح المياه ضحلة فتسبب له الغرق، لن يتوقف زوربا عن الرقص بسببها :

- لا يا أخي لن أدعك تشاطرنني أيامي القليلة الباقية لي على الأرض! وتذكر

أسئلته:

" \_ بماذا تنعتاني فتاتاي " ..؟

" \_ تقولان عنك إنك إشجع وأجمل أب في هذه الدنيا . "

" \_ هل تسألان عني دائماً ؟ "

" \_ نعم وبكثرة . "

" \_ ماذا ستقولين لهما؟ . "

" \_ أقول لهما إنه سوف يرجع والدكم رجعة الفاتحين المنتصرين . "

عادت ساجدة من حيث أنتت حامله قباله أخيهه لابنتيهه، دامغاً بصماته من نرف  
جروهه، إلهما :

" \_ أحبهما حتى لو طال بي الزمان غريباً ولن أراكما . "

نهش المرض جسد ساجده، لم يمهلهه ذلك السرطان الأخطبوط كثره، فارقت الحياه  
بعده تحقيق أملهه في رويهه أخيهه ولآخر مره .

- وداعاً لك يا أخي الحبيب، ووداعاً لك أيتها الحياه!

أيقنت إنها ستأخذ خطأ سريعاً لا رجعه فيه، سقوط أبدي نحو الله عزّ وجلّ، هزيمة  
الحياه لم تعد هي الكبري، هناك انتصارات لهزائم أقوى من العبوديه، الحياه الأبديه .

-10-

" \_ لقد ماتت أختي ساجده يا شמוש . "

لم تصدق ما تسمعهه، صدمت بالخبر، شعرت بالنيران تحرقهه،

" \_ إرأف بنفسك أرجوك، جميعنا على هذا الدرب . "

" \_ أعذريني لم أجد غيرك أشاركه همومي . "



تشارك الألم والدمع، الهواجس والقلق، الفرح والترقب .

" لا حلم لي إلا بخيمتك، أجلت ما تبقى من رحيلي، فأنت ذاكرتي وتذكرتي للذهاب  
 " .  
 " تقول لي دائماً، أنا حائر، أوييني في مهدك، أغرقني في سحر عينيك ."  
 " نعم فأنت بدايتي وكل نهاياتي، في مملكتك عشي ."

بقي في منفاً حائراً، تائهاً، الليل يزداد حلكه وبرداً، حبيبته بعيدة، ربما لن يراها  
 أبداً، كم كره المرات الوحيدة، أمضى حياته يترقب وينتظر، يلوح للمارة وما من أحد  
 يلوح له، أصبح رجل التلوينات، رجل المحطات، تغادره جميع القطارات، وهو ما يزال  
 قابلاً في مكانه يترقب .. الوحدة ..  
 ويعود إلى استذكار الماضي البائس.

حتى داخل خيمته أصبح وحيداً، غادره الحارس الذي لازمه شهوراً عديدة دون  
 رجعة، ربما غافله ثوب الموت، أو ربما غادره هارباً، إلى عائلته، أسلوب قديم  
 تقليدي، الفرار أو منازلة الإعصار، تركه ينطق بصمت الوحدة، يصرخ رعباً ربما  
 الرعب يطلق رعباً، كان لا بد من مواجهته، روض نفسه على اقتحامه، عايشه، يعتاده  
 ثم يطرده إلى غير رجعة، فيبقى دون خوف تاركاً الرعب خلف ستائر الجوع والظما.  
 أصرخ جوعاً، أيلول عطشاً! لهث وراء السراب، داخل أرض الجفاف. شرب وهماً  
 وقضم هواءً، شرد بذاكرته نحو والدته، تحمل الرغيف الساخن تناوله إياه، نظر خلفه،  
 انه يلمحها الآن، تتراعى له من بين الغبار، تلتحف الأرض، وتقف راجعة. واجه  
 الجوع وروض نفسه عليه، رفع راية بيضاء، مندبل أمه مستسلماً، سلك الطرق  
 الوعرة والمندبل قيد يده .

" أين أنتم إنني أستسلم أخرجوني من هنا ؟"

لم يخرج أحد لم تره إلا العناكب، تقدمت إليه بخطواتها الدائرية تندس داخل قميصه  
 وبنطاله، صرخ بها، نهرها، تعايش معها، لازمها، واجهها حتى اقفلت راجعة، تستتر  
 في جحورها، تلوذ بها من الحر القاتل، أراد ملاذاً مثلها، يحميه من غضب فصل  
 الصيف القانظ، بحث طويلاً، رفع هامته بشجاعة، وبعيون بلهاء، رأى الريح، تسد  
 عليه كل المرافق والطرق، حتى الصخور أصبحت أشباحاً متحركة، تمضي على غير  
 هدى، تنصرف بقامتها المنسوخة وأذنيها الطويلتين، تتحسس الأرض بخطواتها  
 الواسعة، تبدو كشجرة عارية أحياناً وأحياناً لا تبدو كأي شيء .

ذهبت خيمته تتناقلها الرياح، تصفعها، ترميها وسط بحر من الصحراء، أصبح بلا ملاذا، يقطع الجثث إلى منحدرات رملية، يتوغل داخلها، يمشي دون توقف حتى يهوي أرضاً وعيناه مفتوحتان للسماء، يلمح حصاناً أبيض .

أمل النجاة تحول فيما بعد حصان تمتطيه عروسه، تختال المسافات، تنتقل بين الكواكب، ضحكها تصله، تحييه، وتأخذه الأزمنة في نوم عميق، تبعد عنه لهيب الظمأ، تسقيه من كاسها، لم يعد يريد ماءً، بل يريد راحتها المخمّرتين بالنبيذ الأحمر :

" يا لك من حورية شقية، ترمقيني بعينيك العسليتين، تخزني نظراتك، تدغدغني همساتك، ترعشني لمساتك . "

ضجيج القتال يورق أحلامه، يقفز من مكانه، تحيطه الوجوه الباردة، ترمقه العيون الجوفاء، كم من العيون الجاحظة أغلقت بأنامله، كأنه اختير ليكون غالق عيون الموتى، وحيداً وسط الجثث الغاضبة، تنتهره صارخة، غاضبة :

" لماذا تأخرت، زاول عمك " يأمره الآخرون!  
 " لم يعد الجوع قوام عليها، نعم بل عليه وحده، لا وجوب للأكفان فالرمال فعلت فعلها، تدحرجها الرياح، تنفيها، تلقيها في غياهب اليباب القاحلة، الليالي تحمل له سر البقاء في ربوعها فينام لاهثاً يطلب الماء، جميع من معه غادروه، اسلحتهم ما تزال تحتل المكان، لم تعد قوته قادرة على إحياء الميتين أو إنقاذ الأحياء، رمى سلاحه ومضى، خلف الكثبان، يهرول إلى جهة ما، يلوح للأموات الذين مضوا في سبيلهم .

تغير فجأة زمن المعارك، الدماء تغطي جسده النحيل :

" أين أنا، ومن أكون " ، فقدّ الشعور بالحياة، أزيز قذيفة يلمع في الفضاء فتصيب خاصرته شظية تسقطه أرضاً، يغمى عليه، فرّت منه الساعات، ربما الأيام، لا شيء يهم، المهم أنه ما زال مع الأحياء، وأي أحياء كانوا هؤلاء...

غادر "مقبرة الأيام " روى ظمأه من دماء الجرحى الباكين، دموع جافة، لم ينهرها أحد، لا عيب في البكاء، كلنا نبكي. انهارت شجاعة الرجال، فُقدت الرجولة وسط الزحام، لم يعد من لزوم للفحولة، أضمرت فيها النيران فأصبحت كومة رماد. القطار مزدحم بالجيف، هدأت النفوس، كان الخلاء نهايتها، انتهى معبد الشهوات.

العويل يصل حد السماء، يُشابه الكلاب في نباحها، تتوقف التأوهات لحظة انسياب الأرواح، تحمل الخطيئة في عباها، علها تُغفر، الأكف تخضع نحو الحرية والراحة الأبدية، ندبت بما فيه الكفاية، يتلهم الألم على التهام ما تبقى، إنه الجامح الطامع! لحظة الألم تُنسى الزوجات والأولاد، الأحبة والعاشقات، لا لزوم لكل هؤلاء، أصبح الوجد أقوى وجوداً منهم، تصبح الزوجة عبناً ثقيلاً في ذاكرة النسيان، الأولاد سألبي الرايات، الأحباء يُهملون والعاشقات أشلاء ذكريات، أن نهوى الآخرين معناه أن نحب أنفسنا أولاً، فتولد فينا أوتاد كيان الحياة بعظمتها، إن فقدناها يهزم الآخرون فينا... فما الألم إلا جزءاً خاصاً باستطاعته سحقنا، فيبيدنا وباستطاعته أيضاً ولادة الجديد من بقايا ذاتنا، هو فقط وحده بلسم الجراح، " الموت " حينها يحل صمتٌ غامضٌ، تورقه تصفيقات الأيدي مهللة :

" \_ ها قد انتهى عذابه، يا إلهي العظيم امنحنا ما لا نريد . "

لكن هناك من لا يستطيع التصفيق، فتعذبه رغبته الجامحة لذلك، لأن يديه قد بُترتا .

يتبختر مغادراً، ضجيجه يغتال أصوات الصمت المعذب، على سكة حديد، تاركاً خلفه آثار الدماء وأرواح الأبرياء، التي ما زالت قريبة، يقولون أن الأرواح تبتعد رويداً رويداً عن مالكيها، إنها حارسة مخلصه لهم، أحياناً تصر على عدم الابتعاد، تتعلق بهم، تقض مضاجعهم، لها كل الحق في ذلك، ألم تسكن تلك الأجساد ؟ أليست سبب ولادتها ؟ أعاشت تتغذى آلامها ؟ إنه بيتها، من الصعب العثور على مساكن مشابهة .. هنا، لا أحد يدري أين ولم يعد أحد يابيه بالمعرفة، لأنها بداية دخول المتاهات.

ان تعرف معناه أن تتعذب، المعرفة توظف الآلام، تستنفذ الأفكار، تُعمى الأبصار وتُفغر الأفواه. صراع مرير، لا خلاص منه، المبارزه ضرورية، صراع مرير هدفه التغيير، من الصعب التخلي عن الوجود الذي يسبب فصل الهاوية، فاجعة البقاء، إما أن نُعلق داخل المتاهة حيث لا رجوع يشفي ولا ندم يشفع، او المقاومة حتى الوصول. منازل طُرق ضيقة وعرة، تُفتح على مصراعيها، تؤدي إلى هوة عميقة، فاقدة اللون والشكل، فقط تُشابه .. النهايات

يد باردة توقظه، تمسح عن جبينه عرقه الساخن، تطري شفثيه الجافتين بنعومة وحنان، يدان ترتجفان، أنامل شاخت داخلها الأظافر القصيرة، تغضنت عروقهما وأحتقتن الدماء، بتثاقل استطاعت الأم إرواء عطش ابنها الجريح، أم ملاك بدت كحمامة أسيرة القلق والخوف بهموم فُرضت عليه، حروب متاهات نتائجها تأوهات الموتى والمعذبين. أناملها ما زالت تتحرك أمام ناظريه، دهنت جسده بالزيت المقدس لعلّ به الشفاء السريع، قطع القطن المبلل تُبهره :

- ما أجمل تلك السحابات، إنها قريبة جداً مني، أتكون ثلوجاً متناثرة ؟

استفاق من خلال ثرثرة النسوة فأسكتهن مفاجئاً :

" أين أنا ؟ "

" الحمد لله على سلامتكم يا بني، لقد خلصك الله سبحانه وتعالى من موت أكيد . "

" لقد أشفقوا عليكِ أمي، كم كانت نفسي تواقفة له، لو تدرين أي موت ألم بي، لقد مات ابنك الشاب الآن فيما يغلفه الإحباط كبرنس جنين، ليتني أنهل الأمان كما نهلته من قبل، حتى لو عدت مرة أخرى وعشت داخل بطنك الدافئ لما شعرت بالطمأنينة لأنني أعيش قلقاً دائماً، لقد أصبح ابنك عجوزاً ينتظر بفارغ الصبر عدوى الموت، جميع أصحابي أصيبوا به، وباء نبيل يريح الأبدان من الشظايا الحارقة إنه ككهف نلوذ به من قيظ الحر ترهقنا حشرات الساكنة بهدوء وروية . "

- بني، يا لك من محظوظ ، أحمدك يا ربي لأنك أرجعت لي ابني معافى سليماً . "

تنكر الرجال بزي النساء من، أجل الهرب، تاركين جبهة جهنم، صراخ وعويل ، صرخة المرة الواحدة علامة الخلاص، الموت، صرختان علامة الوقوع جريحاً، تتبعها إغماءة انصراف الأوجاع، صرخات متتالية استنفاد السلاح وطلب المساعدة . إن فُقدت الصرخات يكون الرجال قد لاذوا بالفرار وإن هرولوا مبتعدين بأرداف منتفخة معناه أنهم أستطاعوا تنفيذ سطو متعمد، وإن هرولوا فاقدين سلاحهم فذلك دليل على أنهم ملاحقون، وإن هرول أحدهم بدون حذاء فذلك دليل الهرب بعد اغتصاب امرأة ما، إذا ابتعد بأسارير منفرجة يعني أنه عاشر تلك المرأة ضمن اتفاقية شرعية بينهما.

شقت النساء أثوابهن عندما فقدن عزيزاً في أول الحرب وفي نهايتها شقتها لتحتمي بجسد رجل ما، فإمّا أن تُرمى كجيفة نابضة بالحياة أو تعاقب بالموت من العار، هنالك من تلوذ بمسكنها الهادئ، وحيدة ترعى أطفالها، تنتظر زوجها، ومنهن من تخطين عبر عتبه يكررن الحدث مكرهات أو ربما متعمدات.

" لم استطع قتل أحد أُمي .. كرهت اعتمار قبعتي، فقد أخجل منها لأنها تفقد الرجل إنسانيته فيتصرف كالحيوانات المفترسة أو الطيور الجارحة، يقتل أخاه الإنسان، لو كنت أضخم من ذلك لتجرات، إننا في عصر ضخامة الرجال لا عقولهم .  
 تحركنا بعنكبوت صامت داخل الصحراء، ساعة إحساسنا بالخطر نتوقف دون حراك فاخترتني داخل جسد أحدهم وأشهر سلاحه على اللاشيء، عناصر بدت كالصخور الصامدة، الصامته، فيعتقدوننا كثباتاً رملية تحركها الرياح، أو ربما ظنوا بنا سراياً، ينعمي عنا العدو فينسحب، إن أصيب أحد الجند العناكب يتعلق بعنكبوت الأم، يحمله إثنان من الزملاء . نتواري عن الرؤيا كأننا لم نكن فيقف الجحيم مبتعداً .

" أُمي لماذا لم تعاقبيني صغيراً ، لقد عاقبني وطني كبيراً، اغتالنتي الأهداف الخاطئة، قتل، ذل وتعذيب، اسير إنسانية ضائعة . أصبحت رجلاً بلا وطن، بلا أصدقاء، بلا خلود، إنه ثرابي ومائي، أشرب منك يا فراتي فتتعذب شفاهي، اغتسل من ذهبك فتزداد قيودي، أسماكك شوك، خيراتك ليس لي بها نصيب، لم يعد بقائي متعلقاً بك، حنيني لك أصبح بعيد المنال، احترق في هواك واحترف الصمت، أداعب طيفك في مخيلتي وأنا على أرضك محروم . فقدت شهيتي للطعام وفقدت كل الشهوات! الضوضاء دليل التخبط في الحياة والهدوء دليل الانتهاء منها، لقد خلقنا في بلادنا كي نتعذب، إن لم نتعذب نُنك، فلم يعد للحياة من طعم، فمن الغباء القول بأننا موجودون ."

" ما بالك بني، يسقط الكلام من فيك كسهام نار . "

" إنه خارج من الأعماق . "

" أين هي شجاعتك، رحمة الله كبيرة، أصبر فإن الصبر لجيمل . "

أعتقدت والدته بأن الزواج كفيل بنسيان أيام العذاب التي أمضاها على الجبهة، إنه المنفذ الوحيد للسعادة .

" سوف تتزوج، أريد رؤية اطفالك قبل أن يذكرني الله، أتوافق ؟ "

" لا مذهب لي في هذه الحياة إلا البقاء . ... "

مثل أي عريس يستقبل عروسه يعرض جسده، رجولته، جاذبيته يجب أن تفتن به، ما أصعب أن يبرهن لها قوته ووحدته في زمن كان كفيلاً في تفكيكها، مُزق من الداخل، بقي دون ترميم، انتشلت منه أحاسيسه، هواجس كثيرة قادتته إلى حالة الأكتئاب، أسباب عديدة قوضت عزيمته، حاول إخفاء سينات الحرب والدمار وأثرهما على نفسه، يتخبط في داخله، شينان متناقضان، الحياة أو الاستمرار ذليلاً فيها، اختارته الحياة ليحيا ضمنها ممزقاً، معذباً، ينهشه الأرق، يصحبه الخوف، تصعقه الذكريات، أية علاقةٍ يمكنها أن تحجب عنه كل ذلك؟ الزواج، ربما يزيد من هلعه، إنه مصيدة للروح، تسلية في المشاعر، ماذا لو رأى الثلج يتساقط خلال فصل حار، أو ماذا لو سحق داخل هوة جوفية ينهل منها الماء العذب ثم يخرج، ماذا لو لاحظ النجوم تتعانق نهاراً! اليس شاعراً فيروي كل هذا، لكنه خشي أن ينعت بالجنون، إذا الزواج أم الجنون؟

شعر أنه ضيف ثقيل على الأرض، لقد رفضته كجثةٍ هادمة كما رفضته السماء روحاً، الى أين يلجأ إذا؟

حدث نفسه، في النهار، في الليل، في الحمّام، الشارع، على الناصية! أصبح يكتب ما يشعر، قالوا عنه " شاعر المرارة . "

" \_ على الشاعر أن يكون عاشقاً كي ينجح . "

" \_ إنني لم أعشق بعد، سأتزوج . "

قهقه كل من أحاطه مستهزئاً :

" \_ حسناً، سوف تنسى مرارة ما تشعر به عندما تتزوج . "

كيف يكون إذاً وماذا، جرّب كأس الخمر، لأول مرة في حياته، أراد التراجع عن الصفقة .

" \_ لكن ماذا بالنسبة لذلك الشيء الذي يسمونه ... الحب ؟ "

" \_ إنه يأتي مع الأيام يا بني صدقني . "

اعتنق الخمرة فبواسطتها تُسكن النفوس، من خلالها تتنوع الدموع، أنواع المرارة، الفرح ، السعادة، الألم، والندم .

" لماذا تبكي يا هذا ؟"  
 " إني لا أبكي، بل أضحك حتى البكاء ."  
 " لا تؤاخذوه ، إنه شارب المنكر، حاسبوه عندما يصحو منه ."

منذ تلك اللحظة وهو يتقمص الأدوار، أدوار شائكة، جميعها هو بطل فيها، الزوج، ثم الأب، الشاعر، المفك ، لجميعها، أي الأدوار، الدافع الأقوى لتصرفاتنا، سببها الدائم ..الغير وليس نحن، يستمتع بها الآخرون كلما أتقناها، تُحرقنا، تُميتنا وسوانا يغمى عليه من الضحك .نتقمصها، يكون معنا فيرضينا أننا استطعنا إقناعهم بحياتنا الزائفة .الحياة مسرحٌ كاذبٌ .مسرحنا هو ميداننا وميداننا يكون داخل بلدتنا، بيتنا، غرفة نومنا، داخل أنفسنا .أقرب الناس يراقب مهارتنا، يؤيدنا، يصفق لنا، يشجعنا على الاستمرار، ويحثنا عن البقاء في الميدان، في القمة، يعتقدوننا الأقوى والأشجع .إنهم لا يدرون إننا بتقمص أدوار البطولة نطوف في دواخلهم، في أحاسيسهم، وربما في غبانهم، نبدو كشمعة مضيئة، يتابعوننا مشدوهين بعيونهم، يحفظون خطواتنا الواسعة، يختلقون الاعذار كي يرونا، لا يدركون أن الشمعة على زوال وأن أدوارنا تنتقل بالفطرة إليهم فيقومون بتنفيذ ما استعصى علينا، يكملون ما ابتدأناه .

وكانت بداية الأدوار، زوجاً مخلصاً، أباً لطفلتين، غادة وهادية، حاول تعويضهما عن حرمانه قال دائماً :

" كان لي أب ."

أراد سماع أمور أخرى، فقالت له :

" أبانا الحبيب " ، "أعز ما نملك هو أنت " ، "نحبك أكثر من أي شيء .."

تقمص دور الزوج بجدارة، شيء ما مزقه من الداخل، أراد لنفسه حياة يفخر بها، زوجة تفهمه وترعى ظروفه، حاول أن يصل معها الى أكثر من الوداد، الحب والهيام، أخفق في ذلك كما أخفق الاستمرار في حضان وطنه .

أرغم على ترك بيته، زوج ورب أسرة يفقد أسرته وهو ما يزال على قيد الحياة، قالوا له :

" إنك مفكر، تُخيف السلطة بتفكيرك ."  
 " إنك خطر على مستقبل النظام والسلطة ."  
 " يجب أن تحب النظام بقدر ما تحب نفسك ."

-13-

بدأت رحلة تعقبه المشؤومة ، خوف، قلق وأرق، غالباً ما تنتهي بزئزاة مغلقة أقفاصها من حديد، مأوى يبتعد عن ضجيج الناس، حيث الجدران عارية، يقاسمه الهواء وحدته المخيفة، أصداء الأصوات تملو حتى السقوف المنخفضة فتتهاوى رويداً رويداً حتى تصل أنين النهايات، لا مكان للنور ولا متسع للآلام، رائحة الغبار ترهق القلوب والرئات، البرد القارس يصعق الأطراف، فصول الشتاء طويلة، تميت أفواه القوم جفافاً وعطشاً في فصول الصيف المتعاقبة .الحرمان يُزهق الأحلام كما تزهق الأرواح . تكبح الأهداف داخل أنفاق الظلام، تعلق الآهات داخل الصدور التي حتماً ستصل نحولتها حتى العظام فتطبق على بعضها البعض، يكون مصيرها الزوايا، أكوام جماجم بعيونها الجاحظه وأفواها الفاغرة .لم تعد الأصوات تتسرب من الثنايا، تُعلق الصرخات يُغلق منفذ الاستنشاق فتبدأ رحلة مغايرة عن جميع الرحلات، رحلة إحساس العدم في الحياة .هواجس الخطر تغرقه، أفكاراً أبداً لا تعرف السذاجة .

تقاطعها "هادية " الصغيرة باكية :

" لقد فقدت دميتي أبي، الدمية التي أحب ."  
 " سأتي لك غداً بجديدة يا حبيبتي .."

ما الحياة إلا دمية، تبدو جميلة كلما ابتعدنا عن أذيتها، تدعك تهول خلفها، تُداعبها، تُقبلها، تشتاقها، تعشقها فتعشق نفسك، تصبح مولعاً بها فتولعك حريقاً، إن خضت اعماقها، تفسد عليك حلاوتها، فتصبح حاقدة، حاسدة، وربما مجنونة . أول ما تفعله بها هو فقء عينيها بقسوة انتقاماً! تققد جمالها فتصبح قبيحة، ثم تقطع أوصالها . تذهب هيبتها .فتتنازل عن إنسانيتك، تتر ما تبقى منها، تنتهي فتزول أنت بمعيتها .



ذهبت به أفكاره الى حد الطفولة، يريد استرجاع شعره :

\_\_ " لا أريد أن أكون كبيراً، أرجعوا لي ذلك الشعر، لقد وُلد معي . "

طقوس اجتماعية لا تشمل إلا فئة الميسورين . حرية الجسد من الطفولة والتطلع إلى المستقبل، زيارة المزين لأول مرة والتخلص من زغب البراعم ما هي إلا حالة استثنائية تنقش في الذاكرة .

\_\_ " هل قص الشعر مؤلم ؟ "

إنها حالة تدفق الدماء داخل الأجساد . تنتفضها ، تفكير عقلائي مقابل شقاوة أطفال، زوال الدلال، مصنع تفوح منه رائحة الرجولة، نهاية اللففة على صغانر الأشياء يليها عصر اللهاث وراء مكنونات الأسرار.

\_\_ " لمَ هذا الشعر الطويل يا أمي، إنني صبيّ ؟ "

\_\_ " من أجل عيون الحاسدين بني، أخشى عليك من الآخرين لأنك ولدت صبياً . "

الدفوف الكبيرة تهز أركان البيت، تقسمه نصفين، صيحات النسوة تعلن الإنعتاق من عصر البلاهة، ، إصرارهن على تكرار أغنيتهن يوقظ الأموات من القبور، واحدة منهن استطاعت قيادتهن يتبعنها مرددات بجلجلة شديدة :

\_\_ " ها هي ليلتك يا صارم يا جميل، تقول للعين، انظري أنا لا أخجل صرت عريس وأستطيع حمل زهور العبير، زوجوني اليوم لأن اليوم عيد ... "

لم ينجُ من رمقة أصغرهن وغمزاتها المتكررة له، إحداهن تقرص ذراعه وأخرى تلسع وجنتيه وسط الزحمة . نهر متدفق من النسوة العذارى، يعرضن نهودهن، شاهدات على الحدث المهيب حدث نادر ابتدعه والدهُ فبدأ نابغةً خلاقاً ، جمع بين الذكاء والأنانية، والغرور وحب الظهور، حالة أب مجنون أغرقته الشهوات .

توفي والده وما تزال الطقوس التافهة تسكن ذاكرته، وخاصة صورة الشيخ ناهراً :

\_\_ " لا تبك يا ولد على شعر الطفولة، إلزم الصمت، اللي فات قد مات . "

إننا نبصر لحظة الفراق، نودّعها راضين وقد لا نكون راضين، لكننا لا ندرك أن الذي فات ما زال حياً يعيش داخلنا، نحاول إبعاده عن الموت وعن النسيان ..

لم يستطع تلبية رغبة صغيرته، لقد وعداها باقتناء دمية جديدة، إنها لا تزال تنتظر، تنتظر قلب أب لا دمية خرقاء .

#### -14-

توالت الأحداث، أصبح الوطن مهدداً بالانفجار، الحرب وشيكة، إنه أقرب من ان يتصورها أحد، ستلحق الدمار في أرض أجداده، وطنه وربما تشمل سائر المنطقة .

علق وحيداً، كما في كل مرة ببلاد الغربية، يقتله تفكيره بطفليته وأخوانه . إذا أطلقت الصواريخ فإنها ستحصد الكثير دون هواده، جلس يراقب الحدث من بعيد ويتابع الجديد، بدأت هواجسه تنعكس على حالته النفسية . لقد نسي نفسه، بدا وكأنه خرج عن النظام الشمسي، محطم الفؤاد، يزداد ولعاً وشوقاً لحبيبته ويزداد خوفاً وأرقاً على عائلته، حتى أنه لا يملك وسيلة اتصال تربطه بكل هؤلاء، بكل محبيه... ينام ويصحو وصوت المذياع يخترق أذنيه، يواكب الأحداث عبر الأثير، يسهر الليل الطويل يدون أشعاره، أحزانه، أفكاره ومكنونات قلبه . جميل أنه يمتلك حاسة القلم، حاسة لا يمتلكها إلا النادرين :

" أجمل ما أسمعه هو صوتك الجميل يا ..حبيبي . "

" ما أجملها من كلمة، تقولينها لي لأول مرة الآن . "

هل علمت شمس أنه بحاجة ماسة الآن لهذه الكلمة الصغيرة العظيمة، استيقظ داخله شعور غامض . الآن سيغادر الحياة، لن ينتظر وسيأخذ معه ما سمع، لقد اكتفى ولن يطمع بالمزيد، فقد علاقتة بالآخرين ، نسي جميع الكائنات ، إنه يذكر كلمة واحدة ما زال صداها يهز كيانه ، " حبيبي " أمطرته رعباً وذلاً ، خوفاً من حب حقيقي جاء، قد يقطع عليه تفكيره ويكون كسيف حاد يسبب نزيفاً خطيراً، نزيفاً لذيذاً لا شفاء منه .

" أجمل ما يغمرني سعادة هي ضحكك الرنانة . "

قهقهه متعمداً، أراد أن يسمعها ما أحبت فيه .

" \_ أحبكِ .. أحبكِ كثيراً .. بوجودك فقط تبقى ضحكاتي " .

" \_ أخاف على يومٍ ما يأتي ولا أستطيع سماع صوتك " .

لم يستطع إنجاز أهم عمل في حياته .. ديوانه الشعري بسبب عسره المادي، أراد مفاجأتها بذلك العمل :

" \_ لأول مرة ألدُ مملكة؟ إنها لك فقط . "

أختار له اسماً ومضمونا جديداً أحتوى نكهة خاصة مميزة :

" \_ لقد تغير كل شيء في ديوانك . "

" \_ نعم أصبحتُ منذ اليوم شاعر المجددين، شاعر الحب والهيام، إنني قديسٌ في حضرة عينها . "

" \_ هل فقدتَ الاهتمام بقضيتك ؟ "

" \_ طبعاً لا، بل أضيفت إليّ قضية أخرى سببها مُلهمتي، لقد أصبحت في أرضها شهيداً . "

لم يعد يتفوه بكلمته التي لقب نفسه بها "صلعوك " اصبح أكثر جدية وحكمة، التزم لذاته، صارم، رجل مبادئ، شجاع، عنيد وعاشق، أحبها في كل جوارحه :

" \_ أفتحي أبوابك لي، فأنا لا أملك محراباً، أمطري يا مملكتي وروي عني هذا اليباب "

استطاع التمرد على الصعاب، خبت نيران الوحدة داخله فتأججت نيران أخرى :

" \_ أرقصُ مثل زوربا، أغني لكل آتٍ، أغني للسعادات، سأسجل على جدران قلبي أنت بدايتي ولتتمضي إلى مقبرة الكون كل النهايات... كم أنت "ملعونة " لأنك أستطعت سلب قلبي المتحجر هذا ! "

البرد القارس يقضّ مضجعه، يرتعد تحت الغطاء، فصل الشتاء بالنسبة له لعنة، لا يمكن تجاهله، لم يستطع منع المياه من التسلل إلى حجرته، قشعريرة المرض تسري

داخل شرايينه، وحش متمرد يطرحه أسابيع منهوك القوى داخل فرشته الرطبة .  
تغزوه خفافيش الليل تاكل من كيانه بلا هوادة، تحوم روحها حوله، تأتيه من بين  
الأحلام، توقظه من آلامه، طوال ليالٍ مظلمة، أهاتٍ ، وهنٍ و كلماته تكسوها الأحزان  
:

" \_ إنني أحتضر ."  
" \_ لماذا أصبحت تكلمني عن الموت ."  
" \_ لأنني ساموت ..الحمى تنهش جسدي ."

أحست ارتجاف أوصاله، ارتجاج أصدائه واصطكاك أسنانه، رافضةً التسليم، إنه  
يتكلم عن تلك الأخيـلة .

" \_ لا تفكر به ..أرجوك أرفضه ..إنك غير مهياً له الآن ..يجب أن تتحداه أبعدهُ  
عنا ..دعه يذهب في سبيله ..افعل أي شيء من أجلي ."  
" \_ إنك حب حياتي، أنا فداؤك ."  
" \_ أرجوك غادر مضجعتك ..استجمع قواك ..للتو فقط ابتدأنا متعة الحياة ."

أصداء أنيه تملأ المكان، وحيداً في حجرته البائسة، يتصبب عرقاً، يتحائل على  
الغطاء ليدفنه، بدا له قصيراً وخفيفاً :

" \_ أين أنت يا غطائي في هذه الليلة العاصفة ."

ربما ذهب مع الريح المزمجرة، يمتطي أجنحتها الغاضبة، يهرول في الأفق البعيد،  
يتسلق عباب الغيوم المشحونه غضباً يناشدها العودة :

" - تعالي واحمني من برد كوانين !"

الكل هاجع في مخدعه، بقرب مدفاته، إلا هو فما زالت الريح تضرب بابه بإصرار،  
تحاصر داره، تخترق أذنيه، تزمجر، تصارع نافذته، تحتله حتى عظامه .

" \_ اغربي عني يا هذه ..لا يمكنك اجتياحي ..لن تغفل عيني عنك لحظة ..لن  
أحقق مبتغاك، كل شيء في داري مكسور، زجاج نافذتي، زجاج صورة أمي، زجاج  
ساعتي، لكن العقارب ..ما زالت تدور ؟

تمر أمامه صور الحاضر والماضي، متجاهلاً المستقبل الذي يلفه الغموض، ظهر له "قطار الموتى، دماء الضحايا، الصحاري، الوديان الجافة، وجوه يعرفها وأخرى يجهلها."

وفي اليوم التالي تعاوده الحمى، تلتهم أطرافه مجدداً، نيازك البرق الخاطف تزيد من وحدته وقلقه، أشجار حديقته العارية تتمايل مع الريح فتتعلق على جدران غرفته، يستغيث بها وينادي طيوفها .

" \_ لن أدخلك إلى مضجعي مهما طال عنادك ."

يأتيه صوت حبيبته مخترقاً ضجيجه الداخلي .

" \_ أشعر باستمرار الحياة عندما أراك، أنت حبيبتي، إنك أجمل ما رأيت، إنك المرأة الأولى في هذا العالم، أريدك أن تتبوني عرش هذا الكون، فيك الطموح، الذكاء والحنان، أنت كل شيء بالنسبة لي، حتى إن غادرتك عليك أن تكلمي مسيرتك من بعدي ."

" \_ كفى .. كفى .. أرجوك، جنتك من الأحلام لأستقر في ذهنك، أقول لنفسي أحياناً، من صارم ؟ أهي بداية قصة أم نهاية معاناة، أم أسر جميل يذيب داخلي كل الآهات ؟ قيوده من حرير. لقد أرجعت لي عفويتي، ابتسامتي وحبتي للحياة، أشعر إنني أمام رجل يعشق كل شيء في، نسيت همومي، بقربك وجنتك تحومان حولي، عينك ترقبان حيرتي، روحك تأوي جراحي وطيفك يطفء بؤسي ."

أجهشت شمس بالبكاء، خشيت أن يكون الخافق الفاصل قريباً منه .

هل بالفعل يحتضر، أم إنه فقط هذيان الحمى ؟ تساءلت.

مرّ يوم آخر والحمى ما تزال تنهش جسده النحيل :

" \_ أشعر باستمرار الحياة عندما أسمع صوتك .في الغد سأسمعك شيئاً جميلاً كتبتّه من أجلك".

" \_ الغد .. الحمد لله .. لأول مرة منذ عدة ليالٍ تتفوه بهذه الكلمة الرائعة، " الغد " ."

" \_ نعم الغد " .

" \_ لقد أصبحت أقدس الحياة لأنك فيها . "

دخل معبده، حجرته البائسة، يقبل طيفها، يبتسم لها، يغنيها ، يهمس في أذنيها  
حكاية حب، ترمقه راضية، خاشعة يبذل ابتسامتها بقبلة عبر الهواء ، ينتظر اللقاء ...

" \_ ابتسامتك تذيب المستحيل داخلي، عقارب الساعة تمضي وأنا أنتظر لحظات  
الإعدام، أسألك هل هناك شمس بعد هذا الظلام !؟ "

أستطاع العثور عليها، من بين الجموع . بروحه الهانجة طوقها، توّجها باكليل من  
نظراته الحائرة، بحث عنها طويلاً حتى وجدها تتوسط الجموع :

" \_ شكراً على حبك، شكراً على كل هذا الهواء، مسكون عندي عطرك، يملأ كل  
الرنات . "

تطرق باب فواده، حاسرة الرأس تكشف عن شعرها الجميل، تلاقت عيونهما،  
أسرته بجمالها، تضع احمر الشفاه على شفقتين مزمومتين تغار منهما عيناها  
العسليتان .

تدافعت نظراته إليها، لاحق سكينتها، ارتجف خجلاً، طأطأت رأسها فارة، زين عنقها  
بقلادة فضية، نفخ فيها نار أشواقه، علق في أذنيها قرطاً رناناً يدندن بصوته الجميل،  
سجن معصمها بأساور من ذهب خالص نسجت بقصائده الساحرة، قلّد رأسها بتاج  
نفيس تعلقت عليه حلقات الحنين، وحتى آخر يومٍ في عمره ظلّ يحلم بحبس إصبعها  
بحلقة نفيسة .

-15-

مضت الأيام وبعاد بينهما الهجر، انقطع الوصال وكان يرقب خبراً منها بفارغ  
الصبر .

أمتعت عنه، حاولت التنصل حتى من صغانر الأشياء. لم تترك له سوى ..الأحلام ..باغتت سكونه، تزوره على غفلة، سمع وقع خطواتها الهادئة من بعيد، ابتهلت ملامحه، نظر إليها بحرارة، بعيون غير واثقة إلتقاها .

" \_ هل فعلاً أنتِ هنا تزورين غرفتي؟ "

نظرت إليه تتفحص ملامحه، إنه هو شهيد الحب والحمى، كستهُ بنورها، ربتت على جبينه الساخن، مسحت عرقه. قطرات الماء تناثرت محتلةً عنقه. أعادته إلى فراشه، أحكمت غطاءه، وسقته برهافة من بعض مائها :

" \_ ما أذ طعم النبيذ من يديك، ما اعظم أن يسكر المرء من رشفة ماء . "

لمس ثوبها الشفاف، قربهُ إلى ناظريه :

" \_ كم أحببت هذا اللون . "

أحس كأنه طير يفقد سربه من أجل سراب جميل، بحث عن يديها، قبلهما :

" \_ كم أحب يديك الناعمتين . "

كست وجهه بقبلاتها :

" \_ إنك تُحرقيني . "

" \_ بل أبعد الحرارة، دعني أمسح عنك بقايا المرض . "

بحثت في ثنايا جسده، عن أسرار الحياة، دماء تحتقن تحت جلده، جبينه شعلة من نار، شفتاه ومضة حريق، وفي زوايا قلبه يسكن اللهب .

" \_ حلمتُ بزيارتك ليلة أمس . "

" \_ وماذا رأيتَ في الحلم أيضاً ؟ "

" \_ ذرفتُ الدمع مودعاً ، وأنتِ ترحلين، لا تنظرين خلفك، أبيتِ الوداع . "

وبعد فترة قصيرة،  
ترأعت له من بين المارة، ترسل نظراتها التائهة بين الحاضرين، تنسحب بهدوء،  
لاحقها بنظراته الحائرة .

لحق بها، يحاول تعجل الخطى، أعاقته الزحمة، رآها تختال في سوق القماش،  
تتوارى بين الأثواب المعلقة .

أستمرت حيث الشاطئ، لترمي جسدها داخله تضرب المياه بذراعيها، تصرخ  
بأعلى صوتها، بدت كعروس البحر ارهقها جفاف الأرض فقررت الرجوع كي ترتدي  
ثوب الحوريات .

أبتعدت، بهاء الشمس يحجب عنه رؤيتها، تلبدت الغيوم فجأة، اكفهرت السماء  
وبوجهها المكتئب استطاعت الاختفاء، ذهبت من حيث أتت تشغل شغاف قلبه .  
وتساءل:

" \_ هل يمكن أن تكون هي ؟ نعم إنها هي . "

نظراته تلمس جسدها، تخترقه، تحس بقشعريرة ما، تلفحها نسمة محمومة، تدفن  
شفتيها المغريتين في شفتيه، يتناثر شعرها في الهواء، يتسريل معانقاً الفضاء، المياه  
تُبلل ثوبها فتكشف عن نهديها، لم يكف عن البحث. لقد أصبحت شغلة الشاغل، لن  
يستسلم لاختفائها، لن يسمح لها بذلك، حتى جاء اليوم المنتظر .

" \_ لماذا تهربين مني ، ألسنت حبيبتني ؟ "

وانتها رغبة جامحة في البكاء، إذا بكت فعلاً فهل ستحل المعضلة، أخطأت دائماً في  
حق نفسها، لم تفعل شيئاً كي ترضيها، استطاعت إرضاء الآخرين، إسعادهم بقدر ما  
نجحت بإتعاس روحها البائسة، إنها امرأة كاملة النضوج، نبذ الآخرون حقوقها،  
بنياتهم الحسنة، قيدت إلى ساحة المعركة كمجندة شجاعة، تلتزم بكامل الحقوق .

" \_ ما بالك حبيبتني، لماذا تتهربين مني ؟. "

" \_ تغمرني الضوضاء، شعور غريب ينتابني، أسكن قرب نفسي المتعبة، أحاورها  
فتأبى محاورتي، أداريها فتخيب ظني، يعذبني صوتك الهادئ، صورتك راسخة في  
ذهني، خطواتك تؤلمني. أعلم أنك مريض، تكابر من أجل طمأنتي، ظمان تحلم بارتواء



عطشك، من حقدك أن ترتوي. أتخيلك مغادراً، حينها ستنكس رايتي وتُخمد ناري، لهيب للتو أشتعل، شمعة عرفت أخيراً النور، نور الحياة، تعهدُ وتعهد لحظة الانحجاب، ربما إلى الأبد .

أكلتك الحيرة والتهمتي الغيرة من مستقبل قريب، حاضري من خالك، فأين هو الغد؟ معاً نصارع الحياة، نحيا على هواها وترميننا بلا هوادة، إلى بؤرة بعكس مسعانا، تتراءى لنا الأيام زاهية من خلال الضباب، ستنسبك الغربية حتى خيالي وسأبقى وحدي أناجي خيالك . كم نحن متشابهان حتى في صغائر الأشياء، أو من بالمعجزات حتى لو لم تتعد حبة الخردل، بإمكانها منحنا بعض أمل ."

لم تدر متى سيكون اللقاء، ربما هذا الأخير. قبل راحة يديها قبل الرحيل، قبض عليهما بشدة وحنان :

" إنكِ طفلي وعروسي ."

" وكيف يكون ذلك ."

" طفلي ما دمت أستطيع أن أقسو عليك وألزمك بحبي مدى الحياة، وعروسي كلما منحني الحب فأمنحك الحنان ."

أرادها أن تتكلم، كي يرتوي من صوتها :

" صوتك ..الساعة في روعي، هو البندول، يجيئُ ويروح ."

تأملها كثيراً وكأنه يودعها وإلى الأبد :

" لو رحلت ماذا أقول، يا الله عذراً، أنبني عنها تكون لي أو لا تكون؟"

منحته الحب والاحترام، ألبسته الشبهات، أغرقته بالهديانا، أعتكف في حجرته يحلم باللقاء ويترقب كارهاً ساعة الوداع :

" كلما مرّ العقرب أبدلُ خطوتي المنتظمة في المرآة، وهي لوحتي، هي انكساراتي وصورتي المحتضرة ."

ما أؤمن أن يلتقي الإنسان بروح يألفها حتى من بعيد، روح تعيد إليه الشباب الجريح، تخلصه من الآلام وتبعد عنه الكوابيس، تقربه من الشجاعة وتغرس داخله

روح الطموح :

" \_ سوف أفعل المستحيل كي أراك ..لن أدع الأيام تفرق بيننا ."

تعكز الإثنان على نفس العصا، كل واحد يأخذ بيد الآخر، يشعان وكأنهما في سباق مع الزمن، في صراع مع المكان، يتمشيان في منحدرات البلدة، كأنهما معاً يدخلانها مسرورين، إذا تخلفت انتظرها وإذا كان هو المتخلف فمعنى ذلك أنه يريد أمامه :

" \_ لا أريدك أن تبقي خلفي ."

" \_ قصدك القول إنك تريدني دائماً أمامك ."

" \_ رجائي الوحيد في هذه الحياة، هو تخليدك لا أعلم كيف، سأبني لك محراباً يزوره جميع الناس وأنا أولهم ."

" \_ يكفيني أن يكون ذلك المحراب داخل قلبك ."

-16-

ترجل بسرعة البرق يغادر مقهى المدينة، قرأ قصيدته أمام زملائه ورحل، لم يستطع سماع الآخرين، لقد كانت أمسية رائعة بالنسبة له، أفضى ما بقلبه، سكب هيامه على الورق وأمام الجمهور فضّ أشواقه، تباهى بملمهته، تفاخر بحبه الكبير وبأحلامه المزدوجة .

- لا حلم لي إلا بخيمتك، هي المستتر ودفني بعد الممات .

أستجمع قواه لقول ما تفجر داخله من ينبوع حنان، توق، خوف وقلق .

- لا أرض لي بعد هذا الاغتراب، أخرجيني من وحل تورطي فأنا مللت هذا الارتحال.

وضع جيبته أمامه، يوجه لها مكنونات قلبه، ظهرت من بين الجموع تصغي إليه، تحتويه بحنانها تجلس أمامه، قريبةً منه، يراها بشعرها المسدل وعينيها البرّاقتين، ابتسامتها تملأ وجنتيها، أراد الصراخ، ليعلن عن وجودها :

- إنها هي، ها هنا، صاحبة أعز ما أملك من إحساس!

فرَّ هارباً يتخلص من الضجيج، يرمي بخطواته السريعة على الطريق، ماراً بالجموع، مختالاً، يسرع بجلل، يذهب لملاقاتها حتى يجد نفسه أمامها داخل غرفته، يحدق بها، في صورتها، يتأملها من جديد، يسمعها :

" كم كانت كلماتك رائعة، لقد سمعتك . "

" قرأتُ لكِ فقط لكِ كانت أجمل قصيدة قرأت الليلة، أتعلمين؟ لقد حولتكِ إلى حورية المندى، سبحتُ في طيفكِ، راقصتكِ أمام الجميع، احتويتكِ بين ذراعيّ، قبلتكِ، شاركتني قبلكي، أذبت جليدي فأضمرت النار بجسدكِ العاري، لم يرك أحد سواي، تربعت بين الجالسين تنثرين عطركِ ولم يستنشقك إلا أنا، منحنتي لمساتكِ الدافئة، صرختُ بأعلى صوتي :

- الطفل الساكن داخلي ينسحب من الطفولة، إنه يكبر، يحفر بدمائه أشواقه، لم تعد الزنازين تُخيفه، المنفى أصبح صديقه، الغربة سر كينونته. وحدي استقبلتكِ، مررتُ بكفيكِ على صدري، اجتحتني، انصهرت أنفاسي، أبحرتُ في أعماقكِ، رسوتُ في مينائكِ ولم يرني أحد سواكِ !

الانتظار قضّ مضجعه، انتظار اللاشيء، لم يعد يقوى على التفكير إلا بها، الصمت يتدفق محتلاً أركان غرفته، كوحش مخيف يقبع على العتبة. يحيا على صورتها، تقف أمامه وتواجه آلامه معه، تشاركه أحزانه، تأوي شروده وتتحمل أنينه، يرجع من ضالته إليها، يزيل احتدامه عندها، يستفيق من غيبوبته، يلثم عقيقها، يورقه حسنها، ينسلّ داخلها... إليها ويشكو نفسه لنفسه :

يشاكسها في الحلم، وينام جفنه لا يستريح، امرأته في بلادٍ بعيدة، تطرق باب قلبه عبر الريح، ينسلّ إلى فراش تداعبه، يحاصره القلق، يقرأ كل تعاويذ الأرض، يبارك لها المنام المريح، في غرفته الرطبة تقاسمه الدمى النهار، وفي الليل تُضمد الكلمات قلبه الجريح، كم مرة أجّل طيرانه وترك حرية التحليق، طائر تمرد على السرب، وترك قوافل المهاجرين، في مملكتها عشه، وبدونه لا يقوى على الرحيل، كلما حاصرته الحمى يرتجف .. يهذي بأسمها فتهبط من سماواتها تمسح يديها جبينه كي يستفيق، هي ألته الحارسة، أينما يمضي بوجهه، وجهها الملاك يدلّه على الطريق، في سر برده يحتفظ بحرّ الكلام، وفي سر حرّه يحتفظ ببرد السلام !

شعر بالحمى تسري في جسده حتى العظام، لم يدرك أية حمى تلك، أهي بسبب  
الالتهاب الرئوي أم حمى العشق والولّه؟! .

لم يستطيعا التواصل، غمرت هما الوحدة فعصف بهما الإشتياق، تقمّص شخصية  
العاشق بتفوق، على مسرح المدينة .

" إنك أروع مؤدٍ لهذا الدور . "

" أي دور؟ "

" دور العاشق الذي يلزم وحده الانتظار، لقد اخترتك بطلاً وحيداً لمسرحية  
شكسبير. أدرك أنه حتى شكسبير لا يمكنه أن يعبر عما يختلج صدره . "

لقد كان بحاجة ماسة لمكان يحتوي استمرارية وجوده، إنه كيان، خُلق كي يبقى،  
البقاء معناه العطاء والعطاء هو إخراج ما يتلبد في الصميم من ضغوطات وعقبات،  
المسرح متنفس فني تنفجر على خشبته النبضات المكتوبة المحكية وكأنها صحوة  
الموت، سطوة الإبداع، إبداع الأشياء لتصبح ملك الآخرين أشياء تعود له . للبطل،  
يسلبها منه المشاهدون .

" أسمع صدى أنفاسهم، أشعر ببقايا ذكرياتهم، المح أطلال دموعهم، هم يشعرون  
بوحدي لأنها دواخلهم، ينعنونني بالمجنون، كيف علموا ذلك؟ لانهم كذلك، اصروا  
على تذنيب أنفسهم فبقوا ينشدون النهاية، هل يا ترى كانت هي نهايتهم؟ هل اغتصبت  
حينهم للماضي، هل سكنت أرضهم القاحلة؟ هل أرغمتهم على إحياء الذاكرة؟ "

" لقد كانت نظراتك حادة كالسيف! "

" كأنك حاضرة معي . "

" بالفعل كنت حاضرة معك، بروحي . "

" لم أر غيرك وأنا على المسرح، لازمتني طوال الوقت، طفت بسمائي، ترنحت  
فوقي . "

" لكنك بالرغم من ذلك شعرت بالغبّة . "

" كيف علمت؟ "

" اردتك ان تكوني جمهوري، أنت وحدك . "

" أعلم أنني بالفعل كنت معك ألقنك ما تتفوه به . "

" لقد شعرت بالاحتضار، السكون ما قبل الموت، لم استطع تقمّص إلا شخصيتي،  
تأتيني دائماً في الأحلام، أصدق ما أرى، أقول إنه الواقع، هي بشحمها ودمها، ألمس

وجنيتك عندما تبتعدين الحق بك، تسرعين المغادرة، أتشبتُ بطرف ثوبك، تشفقين عليّ تنتزعينه وترميه نحوي، اتلقفه، إنه بين يديّ الآن، أداعبه، أجمعه في راحتي، أشمه، أقبله، أقبّل يديك، التهمك، تنبعث منه رائحتك العطرة، أتركه تحت وسادتي، حينها فقط أستطيع النوم قرير العين ."

" إنك مجنون !"

" أَرْضِي أَنْ أَجْنَّ فِي غِرَامِكَ، لَكِنْ لَنْ أَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ قَيْسُ، لَنْ أَطُوفَ الْبِرَارِي بَحْثًا عَنْكَ ."

" ماذا ستفعل إذا ؟"

" سأصرخ مثل أرخميدس، يوريكا، يوريكا، لأنني أخيراً وجدتك، إنك الوحيدة التي تلازم غربتي ووحدتي حتى لو جننتي في الأحلام ."

" أخشى عليك ."

" ممّ ؟ ."

" من العبودية ."

" ارضى أن تكوني حوريتي فأعبدك، إنك آلهتي ."

أي صدفة هذه التي تجعل الأب والإبن عاشقين بارعين . لقد هام والده بزوجته الأولى، بقي على حبه لها حتى وفاته، بينما هو يتمرد عشقاً بامرأة حولته إلى بركان هانج ، يتفجر صراخه المكبوت، يلقي بحممه ويقذف بحرائقه، تنتفض جوهرة فؤاده، بركانا يحول الحريق إلى ماء والنيران إلى ثلوج من بهاء .

- الآن فقط أصدق إنك أبى فعلاً ، أورتنتني الهيام، معشوقتك، غريمة أمي في حياتها وحتى مماتها، يا لسخرية القدر، أخيراً سأغير نظامي في الحياة، الا وهو ان أبدأ بحبك .

-17

اليوم هو الحادي والعشرون من آذار سنة ٢٠٠٣ الساعة الرابعة فجراً، انطلقت الصواريخ تقصف بغداد، حالة إحصار، عفاريت نفاثة تحتل سماءها، تنطلق مع الريح كلهب نار وتغادر بعد صومعة تورق حتى الأسماك في النهرين . فقد صارم حماسته في الحياة، أعياه التفكير في وطنه الملتهب، طفلتاه، وحدته القاتلة، سجن المنفى الأبدي وحنينه لحبيبة غائبة، سلك طريق الاحتضار، أهمل نفسه، ظهرت عليه علامات التراجع من الحياة، قلة النوم، الامتناع عن الطعام والاعتكاف متخذاً الظلمة مأمناً له .

" لا قومية لي بعد الآن والكيان ولى، فُصلتُ عن الحياة، فلتذهب إلى الحجيم. قهر، شجون وحرمان، هواؤها دخان خائق، ماؤها مداد أسود، نورها مصابيح خابية، تحيطنا بفواجعها و ترمينا مكسوري الأجنحة ."

" جميعنا يتألم، باستطاعتنا اجتياز هذه الأزمة، قليل من الصبر ."

" أرجوك أتركيني، إنك تتعذبين من أجل رجل عاد إلى الحياة وهو ما زال ميتاً ."

" أسلم رأيك إذا ؟"

" نعم ."

" أكره الرجل اليأس ."

" إكرهيني فسأبقى أحبك حتى الممات ."

أخفقت شمس هذه المرة في ترويض هذا الكائن على صعوبات الحياة، رَجُلٌ تَعِبٌ منهار، يحمل بين شاربيه غبار سنوات القحط .الدكونه اغتصبت وجنتيه، القلق يقفز أسراً عينيه الحادثين اللتين تحترقان بدماء نزلت من جبينه .

استعان بكأس الخمر يروي ظمأه، يصرخ، ينتفض مترنحاً نحوها، يغرستها في صدره :

" أعلم أنك ترمقيني، لايعجبك حالي، إنك أقوى مني، دائماً استطعت التحدي، فزت بكأس البقاء بينما أهول بين خطوات الماضي أتسربل بعقباته، من أين لك كل هذه الشجاعة ؟ فانت لا تقلين وحدة وغربة عني، إمنحيني لحظة جرأة، فسحة عناد وبرهة تصميم ."

" لا يأس مع الحياة ."

" إني خارجها فكيف لي ألا أياس ."

" بل إنك حي ترزق ."

" لو امتطي ذلك الحصان، أجوب الكواكب مبتعداً ."

" ذلك الحصان يحمل الأحلام فنستضيء بها، يزورنا مبتسماً بإشارات الأمل، يخفي بجعبته بحاراً من السعادة وأطناناً من الغبطة، يأتينا مفاجئاً بشهوة الاستمرار ."

" إني يائس ومفلس ."

" لم تكن النقود يوماً سبباً لصنع الرجال ."

عادَ من هجرته بقلب خافق، روحه تداعب قسَمات نهار جديد، السماء صافية، الأشجار عارية، كانت أوراقها قد كست الأرض، أوراق استطاعت النطق، تتفوه بموسيقى خاصة، كلما خُطت قِطتهُ عليها. تجوب بابه، تنتظر حضوره، تتنأب ضجرًا، وها هي تقف مشدوهة، ترقبه فتتساءل:

- " ماذا يبحث بين أنقاض لفصل شتاء طويل ؟"

ما زالت الأرض رطبة وقطرات الماء تترك آثارها على الأعشاب، حباتها تقطر زهواً ببزوغ قرص الشمس المائل، لقد اشتاقت الأرض لعدو مقدم، سادتها الوحشة أسابيع طويلة كتمت ضحكة تجهزها للربيع الآتي .

الهواء المكثف بالرطوبة يرحب بالمتسلل الباحث، هي قطعة خشب استخدمت سابقاً لتكون إحدى رفوف خزانة بالية، كأنها خزانة جهاز عروس، أصبحت فيما بعد عجوزاً تعاني من تصلب في الشرايين أو ربما ازهقت الحياة روحها:

" كم أمرك عجيب يا هذا، دائماً تشغل نفسك بتقديرات الآخرين الخاصة ."

" بماذا تشغل عني دائماً ؟"

" أنشغل عنك بك ."

" وكيف ذلك ؟"

" لم أُنم طوال الليل، أنهمكت في رؤاي، طُفتُ وتجولت، حتى حولتك إلى حقيقة ملموسة. أترك الكحل في جفنيك، أنثر أحمر الشفاه على شفتيك، أصلُ إلى عنقك لاهناً، أهدمُ شعرك خجلاً، أصلي لعفتك فأبدو مشبوهاً، أزددتُ عنفاً عند محطة قدميك، تملكنتي الرغبة عندما وصلت صدرك الجميل، أه كم اشتاق إليك ."

" ماذا بك ؟ أشعر وكأني أكلمُ مجنوناً ."

" جميع العمليات أخفقت في تقويم المجانين، إلا شيء واحد استطاع شفاءهم ."

" تكلمني بالألغاز اليوم ."

" لقد أمضيت ساعات طويلة أخلط الزيت بالخل ."

" لمَ ؟ هل تبتدعُ أكلةً ما ؟"

" بل أبتدعُ زيارة للمجرات، استقل الرياح، أتية ثم أعود أنثر الألوان على التراب، يتحول الرماد تارة إلى رمل وتارة إلى ذهب، أضغط بإبهامي على سر أنوثتك وتفوق جمالك، أحسنُ تقليم احزانك. ناثرًا شذاك أتخبط حيرة، هل أحولك إلى ملاك فتسبحين في فضائي صباحاً ومساءً أم أخلقك إنسية مجلله بسحر الواقع فأجني على نفسي !؟"

أرسمك عروساً بفسطان أبيض فتحاصرين روحي وتطوقين عنقي، تشنقيني، تقتلعين عيني فاحسر رؤيتك. خشيت غضبك، فرجعت أدراجي نحو كتفيك، كم أردت تعريتهما، ألمس أكتنازهما، أبهر بنعومتها، حدت رهافتك بريشتي، أقنعت نفسي بسماع صوتك الرقيق، صдах يشفي عاهاتي، بعثت خصلات شعرك الأسود فبدوت كمتشردة تتسول حباً، أيقظت حيناً محروماً بفرشاتي فأخرجتك من صومعتك، أرهقتني كم أنت عنيدة، تخشين التخلف عن مواعيدك .

- " أومات لي بأنامك، أريد الرحيل، الفجر يناديني . "

تركتيني ألمم خطوط ابتسامتك، أجمع احمرار وجنتيك، أبهر برموشك وأنكسر أمام نظراتك الحاملة، نهرتني :

- " لا تقترب، الأصباغ ما تزال رطبة . "

انتظرتها حتى جفت، أخذتك في حضني، تحسستك، حدثتك، سخرت :

- " يا بجماليون العرب، ماذا دهاك، عد إلى رشك ! " استيقظت من حلمي المتكرر، أرمق لوحتك، ابتسمت لها وعدت انتظر قدوم ليل جديد يحتضن أحلامي . "

أنهك في العمل، يجفف عرقه براحتيه، تحنت أنامله بالأصبغة، يحول الجمال إلى حيوية، الوجود يلاطم المساحات، أتخذت الفضاءات لها مناصفة، الدكونة والشعاع . لم يهمل الفراغات، يتابع المشهد، يواريه ظلالاً، يرويه ماءً جافاً، يحدق بالوجوه الوهميه، يقرأها، يمسها بطبقات مثقلة بالأحداث، يخترق الغموض، يداعب الإيحاءات، يعلق المحطات في الجدران المظلمة، زوايا معدودة تكشف الخبايا، بصمات رائعة تأذن التتابع والاسترسال، أي قدر ذلك العمل الرائع ومن ضحيته ؟ وما هي جدواه، لغز يتوارى بين الأحمر الخمري، العشق والخطر معاً، وبين أسود الشقاء . لم تعد بقايا السماء بارزة، هي ظاهرة الخريف الذي أستحوذ عليها .

- " إنها أجمل لوحة رأيتها في حياتي . "

- " سرنى أنك فهمت إيحاءاتي وتنويهااتي، أنت فقط أستطعت الدخول إلى مكنوناتي، كم أنت عظيمة، تشاركيني بصمات يدي . "

ما أجمل أن تهوى امرأة رجلاً صادقاً يغذي روحها بأجمل الكلام، يغوي عينيها بألذ الألوان، يمتلك حواسها، يروي غورها بدون لمسات، يزرع بداخلها الأنوثة،



يستبق وحدتها فتنشغل به، يزاحم كآبتها، يطرد عنها يأسها فينقشع الوجوم وتكون البدايات، يعيد الكرة ويصوغ وجودها لمرّة واحدة .

استطاعا تقاسم السعادة الحقيقية، أدركا عظمة الوجود :

- " أن تبتسم معناه أنك أصبحت تشعر وعندما تضحك معناه أنك موجود . "
- " أنت سبب وجودي . "

إمرأة داخل لوحة نادرة، تحرك الكون بنظراتها الدافئة ورجل معطاء معبراً عما يختلج صدره بدون قيود، يصفها بقصائده، يتغنى بها، يسكن في صوتها، يجعل بُعد المسافات بينهما يقترب .  
دنت منه، سمع سهيل خيلها، سبح معها، شاركها أحلامها ، أصبحت أحلامهما مزدوجة . في كنف حصان أصيل .

التهمت نيران الحرب المساكن الشعبية وهو ما زال محاطاً بالانتظار والترقب، وحيداً معزولاً عن الدنيا، تصاحبه الأفكار المشوشة، تختلط عليه الأمور، أشباح الحروب كثيرة، متعددة مخيفة، لقد ألفها، الكثير من الشك واليقين هو ألمها، لا عطب في تذكرها، حتى الابتعاد من غيابها يجعلك أكثر قرباً منها، يقولون إن الزمن كفيل النسيان، لو يدرك الواحد منا إنها مقولة نظرية لا أكثر. الألم يلتصق بك و يسكن فيك، يلزمك مدى الحياة وكأنه الوشم في روحك.

- ما بك قطتي العزيزة تحديقين بي بعينيك البراقتين، ماذا تنتظرين مني، أن أضحك، أبكي، أصرخ، لقد اخترت الصمت والسكون . أحجب داخل حجرتي العتيدة، لن أعافلك ولن انتهز فرصة سباتك رافضاً شهيتي للبكاء، أتلهف للظهور بمظهر طفل باك بسبب أوجاعه، عليّ التخلص من عذباتي التي تتناسل مع الأيام . لاحظ انتفاخ بطنك، سر الأمومة يكمن داخل استدارته، أحدق بك حاسداً، غداً ستشاركيني القلق والخوف، سيكون لك أطفال تمرحين معهم، يتمرغون على جسدك، تداعبينهم، تطعمينهم وتحمينهم من الأيدي الخطرة، لم لا أستطيع حمل أطفالي أو حمايتهم من بنادق الحرب الدائرة، أي غريزة شيطانية تدعني أنتظر هلاكهم، أي صبر يستوطن أعماقي ويسد شراييني، إنني أقف في مهب الريح، موقوف داخل زنزانة مغلقة، مكانان يكون السير فيهما مشلولاً ، أفكاري مشتتة، خطواتي مقيدة، لك حريتك ولي اسري، أي عدل هذا الذي يُمنح للحيوانات المشردة ويُحظر على الانسانية فنصبح ليس

فقط مقيدين بل مشردين في متاهة العدم ."

-19-

ارتاد مقهى البلدة يترقب احداث الحرب، التزم الصمت، عجز عن الكلام بينما الضوضاء تعج بالرواد، يترقب انطلاق الحدث، اكتظ المكان بأتراب المنفى، يطلقون سراح تنهيداتهم الثقيلة، يمررون نظراتهم البكماء على تلك الصور .

- هل تعتقد إننا سنمضي في منفانا مدى الحياة ؟
- بلدنا لم يعد بحاجة إلينا، لقد أصبحنا من المنسيين .
- زوجتي طلبت مني الطلاق، ترى هل ما زالت في الدار؟

أسئلة تحزن لها القلوب ...

نهضت الأجسام، قفزت في الهواء، انطلقت صيحات الدهشة، تصافح الرجال وتبادلوا القبيل .النهار ما زال في بدايته، تراكض حلم العودة على شريط من ذهب . شريط الماضي للمعاناة، الجوع والقهر، أصبح جاهزاً لالتقاط صور الحاضر والمستقبل :

- إني لا أصدق ما أسمع .
- ترى هل ما زالت والدتي تنتظرنني، كيف أقول لها اني ما زلت حياً أرزق ؟
- كيف الطريق إلى بغداد ومتى ؟

هاجمت صارم أحلاما جديدة، خرج من حلم ليقع في حلم آخر طالما أنتظره، العودة، مرت صورة حافلة العودة أمام ناظريه، سيكون داخلها، مع أول الفاتحين، من الذي سوف يستقبلها أولاً، عادة، هادية، العائلة، من سيزور؟ وأي شيء سيفعله أولاً، سيركض في شوارع بغداد؟ ويشم عبقها الذي غاب عنه طويلاً، يشرب الشراب من سوقها .أيضاً مسجد الحي؟ أيجلس في مقهى أم كلثوم، أيتجول على ضفة النهرين، يسبح في مائهما، أم ينطلق بين الزحام أشتياً لوجوه ربما تكون قد نسيتته !!؟ هل يعود المنسيون إلى دائرة الذاكرة وإن عادوا هل سيحظون بالترحاب أم أن الفتور سيكون من نصيبهم !!

مصير الدائرة الإغلاق، كي تكون دائرة ولا شيء آخر غير ذلك، إنها حياة إنسان، إلا

إذا تغيرت الظروف فيبدأ حياته في دائرة مغلقة جديدة .كم من الدوائر اصبح لكل منا وأيتها هي الأهم .بأي دائرة يحقق صارم ذاته ؟ ذهبت به الذكريات :

- " عمّ تبحث يا بني "؟
- " أبحث عن الطفولة، أخشى إن فقدتها أن أفقد الوجدان ."
- " بإمكانك بناء وجدان آخر أقوى ."
- " هل ستبقيين على حبك لي يا أمي "؟
- " سأحبك أكثر لأنك ستبني وجداناً أكثر صرامة ."

نداء صديقه أجفله، أيقظه من أحلام راسخة في دائرة الذكريات .

- ما بالك يا صديقي، الحلم تحقق وما تزال عابساً، أين هي ضحكك ماذا عن طرفتك، أتحننا بها .أست مسروراً ؟
- لا يمكنك إدراك مدى سروري وسعادتي .
- لكني لا أرى ذلك ما أنت عازم عليه الآن ؟
- عازم على زيارة قبر أمي .

-20-

لمعت الدموع في عيني صارم، جال بهما المكان، كانه يراه للمرة الأولى :

- أين ذهب الرجال؟

ثركت فناجين القهوة على الموائد، تبعثرت الكراسي، لم تعد تحيطها، لأول مرة يلمح أرضية المقهى ببلاطها العتيق الأسود وجدرانها القذرة التي تتخللها الشقوق تشهد أقدام ووجوه آلاف المنفيين ضحايا الكلمة، سجناء الغربة .يعبسون، يضحكون، يبكون، يقهقهون يثرثرون ويفترقون، منهم من بنى أسواراً من حجارة، فاقدين أمل العودة ومنهم من احتضنتهم أتربة النهاية، منهم من استطاع غرس شتلة فأصبحت شجرة مظلة، مثمرة ومنهم لم يستطع إلا غرس الأشواك .هناك من استطاع التخلص من الدوائر ليبدأ أخرى جديدة، ومنهم قدر عليه البقاء في دائرته حتى الممات .

المنافذ تعج بالتذمرات المنقوشة بالأقلام، السكاكين، المسامير وربما الأزاميل أيضاً، تُرى هل سيعترف بها التاريخ، أم يجب أن تحفر بدماء الضحايا في مسلات من صخر .

المنافذ تمتلئ بأعقاب السجائر "وضياء" النادل يتذمر مستاءً من الفوضى، شاكياً همه وبلهجه المصرية الجذابة يحاول التخفيف عن نفسه قائلاً :

- حسناً سأغفر لهم ذلك لأنهم في عيد ...

جُهزت الأمتعة، شُدت الرحال، تدافع المغادرون يسلكون الطريق إلى بغداد . ذات الطعم الشهوي، قرعت نواقيس عصر جديد، بات الحلم حقيقة، انقشع الدخان، انهارت أخيراً الأحزان عليها تتحول إلى رُكام .

همّ صارم بمغادرة المقهى حين استوقفه ضياء :

- هل سأراك غداً ؟
- نعم بالتأكيد، لن أغادر الآن .
- أرجو أن تلقي عليّ التحية قبل المغادرة .
- سأفعل .

تُرى ما الذي يقلق ضياء إلى هذا الحد، أيمن أن تكون الأشواق قد عصفت داخله ؟ هل سيشتاق فعلاً لجميع هذه الوجوه أم هو الفضول وحب الاستطلاع، أحسن دائماً استراق السمع للأحاديث الشخصية، خاصة المكالمات الهاتفية، لم يتردد في السؤال عن هوية المتصل، وإن تسنى له ورفع هو السماعه قام بدور المحقق على أكمل وجه، أعتقد نفسه مرة سكرتير الزبائن، يوصل الرسائل ويستحدث اللقاءات، يحفظ العناوين ويبلغ الآخرين عن المواعيد . تباهى بوظيفته ورفض الانتقال إلى عمل في مكان آخر معللاً:

- أفضل البقاء بين هؤلاء المثقفين، ربما أحاديثهم تكون مبهمة بالنسبة لي اليوم، لكن في الغد سأفهم ما يقال .
- ماذا بك يا ضياء لم أنتَ حزين ؟
- أخشى المستقبل .
- يا لدهشة الكون، حتى ضياء أصبح من ذوات الدوائر .

- متى ستغادر يا صارم ؟ سأله صديق له .
- لن أغادر الان .
- أبسبب تلك الحورية العذراء ؟ .
- نعم، أخشى أن تكون المسافات بُعداً قاتلاً لكلينا .
- أحبها كل هذا الحب ؟
- نعم إنها معبودتي .
- يعني ذلك أن الرب يقطن أرضها !

رجع أدراجه، حيث تقاطع الطرق وكأنه يراه لأول مرة، وصل الإشارة الضوئية، إنها تعمل كالمعتاد، الحوانيت المغلقة أصبحت جميعها متشابهة، الحواجز الحديدية تظهر أكثر نقاءً ونظافة في الشوارع الخالية، عصفت به الذكريا ، هدوء البلد جعله يبدأ الغناء، أبصر الأماكن، رآها متجددة وجميلة، دافئة . وافته رغبة التجوال مع نفسه، لا أحد يشاركه هواءه، استمر في العدو، أضيئت مصابيح الغروب، دخل حجرته لأول مرة منذ أعوام لا يُضيء المكان، جلس القرفصاء يهدي :

" كأنك تحمل لي يا ليل قطوف العنب الأحمر المخمر . القمر يتوارى خجلاً بين السحب الهادئة تحتجب النجوم خلفهما، وإن حدث وظهرت قفزت كباقيات ورود بلا أشواك، احتسي العنب المخمر بتيجانها، كأنها الكؤوس، فارغة فأملؤها . الأشجار تداعب فضائي من الخارج، تبعث إليّ بظلالها عبر المدخل، فتحت نافذتي الموصودة لأنعم بأريجها .

لم يعد بحاجة إلى النور، انقشع الظلام، روحه المعذبة سكنت السلام آتٍ وعصر الظلم انتهى، لم يعد يخشى المنفى، قلبه يدق كالنواقيس، عيناه تبتسم . أصبح سريره مغايراً ووسادته عطرة، فرشته مبطنة، قلمه شغوفاً، ضحكته شهوة وشوق همسات ليلة تشعله جمرًا وتوقده نارًا ، وتساءل:

- ماذا لو اقترفت ذلك الذنب العظيم وقبّلت جسدها وملأت الكون من تاوهاتنا . لو استلّ وعيها لو اقبض على نهدتها، أغرق في صدرها وأعوم في شفيتها ؟
- يا لك من سكير شقي... يكلمها .
- اسكر في حضرة عينيك .
- كم كأساً تشرب كل ليلة؟
- فقط كأسين .
- متى سنُفطم عن المشروب؟

- عندما ألمس ساقيك .
- لقد نالت منك الشيخوخة فعلاً وأصبحت عجوزاً خرفاً!
- ارتدى بذلته الرمادية، ابتسامته غطت وجهه فبدا لها مشرقاً أخاذاً، انتظرها على  
الناصية :
- أيعقل أنه هو، يبدو لي مغايراً اليوم ؟
- لقد جئتني تشاركيني فرحتي، تأتيني في اليوم الذي أسترجع به حياتي، هل أنت  
حقيقة ؟ إنك رائعة الجمال!
- جئتُ أطمئن عليك، أرى أمامي رجلاً محباً للحياة، يخطط للمستقبل .
- أتردد الرجوع .
- لم ؟
- ما الذي سأقدمه لهم، سأرجع خاوي اليدين، أخجل منهم، لن أتقن الإجابة على  
أهم سؤال، ماذا فعلت في الغربة ؟
- بل يجب أن تكون فخوراً بنفسك لأنك استطعت تحدي الظروف الصعبة وحيداً،  
ألا يعلمون بظروفك ؟
- بلى .
- إذا لا تفكر بهذا الأمر، إنهم في انتظارك.
- دائماً أنا رجل البدايات.
- حتماً ستبدأ معهم وسوف تصل الهدف المنشود .
- أشعر وكأني أحتق .
- يجب أن تكون أكثر سعادة .
- إنه الحلم الهارب، هو العطش، أحترق من لوعة الفراق وأحترق من روعة  
اللقاء، البعد يقترب، أقرأ وجه مدينتي .
- اذهب يا صارم، أن لك الرجوع، طالما حلمتَ برجوع الفاتحين ."

-21-

- مستحيل ألا يفهمها أحد، إنها الابنة الكبرى ، عادة تترقب عودة أبيها، فقد أبتعدت  
عنها ساعات اللقاء .
- حدثت نفسها:
- متى ستصل إلينا يا أبي، متى سنسمع وقع الأقدام التي سيتبدد بها الانتظار؟

حتى حفيف الأشجار بدا لها مسموعاً، تجلس في النافذة حائرة، تتسرق السمع وتنتقل بنظراتها إلى كل حافلة تقف أمام البيت، تتأملها وتعدو بين الوجوه بسرعة الانطلاق، فلا تصدم أبدا برويته! تستجمع مخيلتها، ترجع بها إلى الوراء وتحاول تذكر ملامحه :

- ترى كيف تبدو الآن يا أبي العزيز؟

ركضت إلى درج خزانها، انهالت عليه تخرج بعض صورته، تصر على عدم نسيانه، إنه هو بلامحه الشابه .  
- ما زلت كما أنت، أم استطاعت السنين والقهر النيل منك ؟

طوال فترة النفي لم تره إلا في الصور، استذكرت الماضي حتى بات كشريط سينمائي مقطوع، حلقات كثيرة عُطبت، ربما التكرار، الفراق، البعاد سبب ذلك، سألوها دائماً عن اسمه، قالت إسماً لا يشبهه، عن وجوده، أجابت :

- لقد توفي منذ فترة بعيدة !

خشيت الإعلان عن حقيقته فتقول مترجمة:

- إني إبنة أعظم رجل في العالم!

اضطرت لنكرانه كما علمها الجميع، منذ نعومة أظفارها وهي تتعلم درس نكران أبيها وهو ما يزال حياً يرزق .

- ما الذي يعيقك، جميعهم عادوا بأفواجهم، وصلوا إلى عوائلهم، انهمروا بالمئات، أراهم ساعة الرجوع ؟

كلمت نفسها، قالتها وخلصت إلى نتيجة محتومة .

سلكت السبيل الترابي المؤدي إلى الحي المجاور، قاصدة بيت زميل قضي مع والدها سنوات الوحدة، ففز قلبها داخل ضلوعها عندما رآته .

- إنه هو نعم، لقد كان مع أبي !

سرقت عينيه .

- حتماً ما تزالان تحملان طيفه!

تسللت إلى قسمات وجهه، ربما لفحتهما نسمة مشتركة !

- أين هو أبي يا عم، متى سيصل ؟

ذهل الصديق من سؤالها البسيط، كان من الصعب إيجاد الجواب الصحيح، ماذا سيقول لها، أنه لا يعرف موعد عودته . فأجابها قائلاً:

\_\_\_ انه يصفى أعماله، سيصل عما قريب .

\_\_\_ هل قال لك شيئاً عثاً ؟

\_\_\_ نعم بكل تأكيد، أبلغني توصيل سلامه وأشواقه الحارة اليكما .

\_\_\_ لقد تأخر كثيراً .

\_\_\_ لا تقلقي عليه، حتماً سيصل وستنعمان معاً بحياة رغيدة .

رجعت عادة أدراجها، كان الظلام وشيكاً وكبرياء النهار أخذ في الزوال، اسرعت في خطواتها تلهث خوفاً، الريبة تملأ الأجواء، تشق الشارع المؤدي إلى البيت فتلتقي بأحد الجنود متأبطاً السلاح، يقترب منها يحاول مساعدتها في العبور فارتبكت خجلاً ورفضت مساعدة ذلك الغريب، لمحت جندياً آخر يشارك اطفال الحي بلعبة كرة القدم وثالثاً منغمساً بأعماله بمراقبة المنطقة، حتى وصلت باب العمارة المظلم، دخلته فضاعت آثارها . وصلت البيت محطمة الفؤاد، احتضنت شقيقتها هادية تعلمت وحسب صية والدها :

- " حافظي على اختك يا عادة ."

استطاعت الظروف الصعبة أن تفكك وحدة العائلة المكونة من أربعة أنفس لتصبح كل نفس معلقة بنقطة عبور مختلفة، رب العائلة رهين الخوف والاعتقال، الأم رهينة اللامبالاة، الأناية وعدم المسؤولية، فتبقى الفتاتان رهينة اعتقال السنين بهفواتها، ندوبها ووعورتها وسط الزحام تبكيان الماضي، تنشدان أوهام المستقبل، لكن الوهم أصبح الآن حقيقة فمتى ستتحقق استدامته . اخترق صمت تفكيرها سؤال هادية المتكرر :



\_ متى سيصل بابا، اشتاق إليه كثيراً، هل تعتقدان أنه ما زال يحبني؟  
 \_ طبعاً يحبك، إنه حتماً سيأتي، سيصل بعد أيام ."  
 \_ لكنني نسيتُ شكله، كيف ساتعرفُ عليه ؟  
 \_ من المؤكد أنك ستتعرفين عليه عندما تريينه .  
 \_ أخشى أن يكون قد نسيتني كما نسيتته .  
 \_ الآباء لا ينسون أطفالهم أبداً .

خسر تعقب طفولة ابنتيه، حلقة ناقصة سبب قطع خيط المسبحة فتدحرجت كراتها،  
 تشبتت مع الريح، فراق، جوع، حرمان، كبت وأنهيار، ضاعت الأحلام وعصي الدمع .

-22-

قصّ شريط الغربة، تاركاً آثار رحله الاستمرار حيث توقف، تكلمة مشوار الحياة .

يتخذ دراجة هوائية وسيلة سفر نحو الوطن، لن يصله سريعاً، يريد جس نبض تراهه  
 والوصول إلى قلوب الناس وعقولهم .

يجب تذوق عناء العودة، فكيف إذا سيشرح بطعم الحرية ويشم رائحة الوطن الزكية،  
 لم يستقل حافلة ولا قطاراً، لن يرتحل أبداً بذكرياته نحو قطار الموتى .

لأول مرة سيفعل حسب نصيحة والده المتوفي :

\_ " الذي فاتَ قد ماتَ . "

بزوغ الفجر شاهداً على العودة وغروب الشمس علامة الترحال، ربما تعاقبهما  
 يكون له تعويضاً عن الضياع، دروب الغبار ولّت، أصبح أفق الحنين قريباً، إحصاء  
 زمن الوصول معناه إحصاء سنوات الغربة، كل يوم في سنة كاملة، مخضبة بالدموع  
 الحية الحارقة .

لن يغرز قدميه داخل مسافات الحسرة، دروب من زجاج سببها تقيح الجروح . لن

يتخذ طريقاً في سماءٍ مغلقة، يللمم أصداء صباحات غارقة في متاهات الليالي الحالكة .

ما عاد منفيّاً أو هارباً، الضحكات أصبحت حقيقة وطعم السعادة زيبياً مجففاً .

هدير خطوات الرجوع مغائراً، وقع الأقدام الواثقة يُعفر الأجواء، فيعاقر أضواء المصابيح المعلقة فتبدو كمظلات تفتح أذرعها ترحيباً .

أن تمس تراب بلدك معناه امتلاكه، تشرب من لبنه الرائب وتأكل من ثمره الضاحك .

العناء الآن ذو قيمة والخلاص من العبودية اسمى الحريات .قَادَ دولاب الزمن متحدياً بأجنحته القوية، تُفرد في تيار الريح، الراحتان متجهتان نحو السماء بخيوطها الذهبية، الشمس تلتف حول الأنامل العشرة فتتحول إلى شمعات متقدة لا تدوب ولا تنتهي .

ما أجمل الرجوع أنتصاراً، يُقبل الطرقات المغايرة، البيوت مشرعة مضيئة، الأشجار تطوي داخل أغصانها آثار الدماء .الأرض تُهلل فرحاً، تبسط ثوبها للتدرج، تحميك من شر المجهول وتأخذك في عابها، تحيطك بأسوار حدائقها .

رياح المسافات ودودة، تلازمك حتى بيتك، تطرقُ بابيه، ترفع رايته فيأتي المحتفون بخلصك .

ظلام الليل يحمل لك الوسادات الناعمة، يبهرك بضيوفه والنجوم يخدمك ضوءها فتصاغ من اجلك سبل النور، تغمرك قائلة :

" \_ تعال إلي، كفى غربة ."  
تحتضنك، تسمع لهاتك، تربت على كتفك، تبتمس قائلة :

" \_ الآن سيبدأ التاريخ ."

إن مرّت بكَ ظبيةٍ أعلم أنك في أرض السلام، تلال الخصب على المشارف .  
والنهران يركنان في حضن الصحراء صامدين :

البحر والصحراء متشابهان بالملوحة والقدرة، حبيبته تتخذ لها الساحل موطناً،

وحيدة بلا نهر، وهو داخل الصحراء سعيداً بعائلته قريب من نهره ويموت عطشاً .  
تأتيه من الشاطئ وقبل ان تختفي في الصحراء يلومها :

- " لم لا تشاركوني دراجتي ."  
 " طريقك صعب عليّ، ساكون معك بروحي ."  
 " بك تتحقق جميع أحلامي ."  
 " بكت، دموعها الساخنة تغرقه :  
 " لأول مرة المس دموعك ."  
 " بل إنها المرة الثانية ."

الأسراب تغزو سماء الوطن، إنه أحدهم، لن يتخلف سيدخل الأجواء مبتسماً .

أطلقت الزغاريد فاختطت بزقزقة العصافير، أصوات النسوة أغرقتها آهات الأشواق  
حتى القرويات بسلالهن المليئة سيطن باب المدينة يهدين الراجعين حبات التمر  
واللبن .

- " لم اخترت الرجوع بدراجة ؟"  
 " أردت التنصل من الذكريات رويداً رويداً ."  
 " هل استطعت ؟"  
 " لا لم استطع ."  
 " ماذا ستفعل إذا ؟"  
 " لا أدري ."  
 " دع الزمان يكون كفيلاً بذلك ."

خطا طريقه بدواستي دراجته من أول الرحلة إلى نهايتها، وهي تحتل أجواء سمائه  
بحصانها الأبيض، تخط بيدها حروفاً مبعثرة، تنسجها بماء الذهب، تبعثها إليه عبر  
السماء الصافية، خطوطاً مشوشة، لكنها مفهومة، يستلمها بحنان، يرتبها فتصبح  
عبارات، يدخلها لباب قلبه :

" أحببتك من كل قلبي، كبريائي يكون فقط بوجودك ."

قالتها، إنها تحدثه، لقد سمعها بوضوح .

"\_ أنسحبُ من حياتك، أخلي السبيل كي تُكمل أعمالك المؤجلة، أنا متأكدة، لن يكون لي مكانٌ عندك . " ..

-23-

ذهبت مع الريح، أخذتها العاصفة بعيداً، أنهارت السحب خلفها فبدت كدخان المداخن  
الثائرة . كما في كل مرة ظهرت له فيها، فارقتهُ مثل فقاعات صابون وكأنها لم تكن ابداً

تلبدت الغيوم، بدت كغارات تطلقها الصواريخ في ميدان الحروب، أطفأت الأنوار،  
اختفى القمر، بللته مياه الأمطار الغزيرة، وصلته دموعها أغرقته فأيقظته من حلم  
مزعج، أصبح فيما بعد كابوساً زاحم سريره، رحّب به حد العشق وعاش بقية حياته  
ينتظره متوهماً .

لحظة الفراق كالسيف، بريقة يلهب الألباب، يغرق عيوننا بهاءً، يصقلها دهشة  
فتصبح أكثر فتنة . يشعل قلوبنا، يوقظنا من سباتنا، يقطع علينا احلامنا، تُسبك أئمن  
الذكريات وأروعها بالدم والدموع، نفارق الحياة . لحظة مجنونة، برهة غفلة وانكسار  
متعمد، نحني رؤسنا نستسلم للهلاك، ومن خلال النشوة نصل إلى القدر المحتوم،  
الضياع، إلى النهاية .

هي صرخة الحاضر للماضي، رصف الجديد على آثار القديم، نشيدٌ مستقبلي لا يحمل  
غبار الأيام السالفة، يُمسح، يُطهر، يُلمع، لا جدوى، تبقى أطلال العز باقية، تتسلل  
مراوغة، تُداعب، تورق وتسري في أعماق الخلود . أي صفحة بيضاء تلك التي  
يبدوها المستقبل ؟ ولادة جديدة عسيرة ، رغم أنها حديثة النضوج، دون غبار! يا  
لسخرية القدر، ما من ولادة بدون أم ولا من برعم دون جذور !

تسمعه يناشدها :

"\_ هو الحلم الهارب، من عيني، معلقاً في قلبي ..فوق شماعة الملابس تصوري  
كيف أكون ؟"

"\_ حلمك بالرجوع يتحقق ."

"\_ لم تعد أبوابها مقفلة ."

"\_ ما زلت أحمل فوق كتفي أثقال غربتي ."

- " لعلّ حنين العودة يروي ظمأك . "
- " وحدهُ مطر كقبك يطفئ هذا البركان . "
- " لقد أصبحت بين عائلتك وناسك . "
- " تاهت عندي الخطى، فوق خريطة الدرب، دليني، فأنت الزمان وأنت المكان . "
- " لماذا ما زلتَ تشعر بكل هذه الوحدة ؟ "
- " أترنج مثل بندول، إقطعي حبل السرة، أنا طفلك أعطيني من الدفاء، فيّ من العطش، سرّ العطش . "
- " دخلت باب مدينتك منتصرًا . "
- " أفتح باب الضوء، كي أرى ظلي، أمطري يا سرّ الخصب . "
- " ما بالك ؟ "
- " يا أنت، يا حياة، منذ زمن بعيد، أداري في صدري، زهورًا ذابلة، أمطري فوق صدري، ربما يزهر عشب القلب، تعالي، أدخلي حديقة الروح، تعالي، لك كل هذا الهواء . "
- " لم استعجلت الفراق، كيف وصلت موطنك ؟ "
- " أنا لم أستعجل الفراق كي لا أتعجل اللقاء، أتيت على دراجة هوائية، الهواء يمهد لي الوصول، بينما يساعدي الدولابان على النسيان، نسيان أجمل ماضٍ . "
- " أي دولابين . "
- " دولابا الحياة والممات، عندما نفترق نشعر بالموت مثلما نشعر بالحياة زمن اللقاء . "
- " سرت كل هذه المسافة على دراجة ؟ "
- " دست على أطلال التعاسة، نفس الطريق التي أهلكني غربة وذلاً، أفرغت دائرة من نفايات الماضي وأغلقت الأخرى على ذكريات ثمينة تعيق المستقبل . "
- هل أنت مسرور الآن ؟
- لا أبدًا !
- لماذا ؟
- لأنني نلت حلمي أخيرًا .
- أعجب منك ! وماذا بعد ذلك .
- هناك حلم آخر لم أنهه...
- كم حلمًا لديك .
- لدي حلم مزدوج .
- اثناء طفولتنا قمنا بإعاقة أحد الدولابين بواسطة ربط خرقة ما بين الأسلاك فتتوقف عن الدوران تقبع مكانها كتمثال أصم لا يتكلم ولا يقوى على التحرك . كم أسفتُ لأنني لم أتبع الماضي بنزوات الطفولة، أحاسب نفسي على مغادرتي سعادتي،

قانع أحاور مهاترات الأزمان . حتى قطتي لم تأبه لرحيلي، لم أرَ دموعاً تذرف، رمقتني فقط، دخلت حجرتي من بعدي تبحث عن بقايا طعام، انتظرتها حتى خرجت فما كان منها إلا التثاؤب والتمدد على حصيرة الجيران . وجدت لنفسها مأوى جديداً تلوذ إليه، لم تعرني أي اهتمام، ربما نسيتني أو هي تلومني، أهملت أوجاع المغادرة، تركتني اتخبط بعذاب التردد وحدي، وبعد أن أرهقتني التفكير سألت حول العشرة والمودة، لو كانت القطة كلباً لما بارحني، لبقي يركض خلفي حتى بغداد . خُلق ليكون وفيّاً في أزمنة مات فيها الوفاء .

— إنك تهذي .

— " بل أنا شيء آخر " .

— ماذا ؟

— انني ..خائن .

— بل إنك رجل البدايات، أنسيت ذلك ؟

— جميعنا رهن البدايات، أترين نفسك من أولئك .

— ماذا تقصد ؟

— امرأة البدايات .

— انت وحدك تعلم من أنا، ألم أكن قطتك ؟

— بل إنك حبيبتي المخلصة .

-42-

يجد نفسه داخل ساحة جديدة، يبدو له المكان مغايراً، اعترته حالة من الشك :

— هل هذه ساحة الميدان يا أخي ؟

— نعم ..

كان عليه التأكد من صحتها، لم لا يزال يشعر بالغربة؟! أم هي الأماكن التي ضاعت منها هيبتها؟ أين هو ضجيج المارة، المركبات تضاءلت، كانت هناك بعض النسوة بأثوابهن السوداء يقرفن على قارعة الطريق يعرضن بضائعهن للعابرين، لقمة العيش مرة ولا من أحد يستهين بالجوع .

سقطت ضحكات الأطفال، لم يعد اللهو يستحوذ على حياتهم، كأنهم ولدوا رجالاً، يحزنون ويفرحون مثل الكبار، يتصرفون ويسلكون مسلك العجائز .

بحث عن بائع عرق سوس، اين يكون ؟ ما زالت أصدااء كؤوسه تبهره، ماهر باكتشافه العطشى، موهبة خلاقه مصدرها قراءة العيون .

\_\_ تعال اروني، حتى أنت لم تعد حاضرًا !

أين هي جيوش المسافرين، هل ابتلعتها الارض !

أبصر حافلة تتخذ ناصية الشارع موقفاً لها، امتلأت بالرجال الضائعين .

\_\_ لم يعد بيتي قائماً، هدمته الصواريخ .

\_\_ من أين جئت يا هذا ؟

\_\_ من عمان .

\_\_ أولادي لم يعرفوني وزوجتي لم تعد تريدني .

\_\_ من أين جئت يا هذا؟

\_\_ من لندن .

\_\_ بحثت عن عائلتي، يبدو أنهم تركوا البلد .

\_\_ من أين جئت يا هذا ؟

\_\_ من الكويت .

\_\_ أمضيت الليل بطوله محاولاً تقريب أطفالي إليّ، خافوا من وجودي .

\_\_ من أين جئت ؟

\_\_ من أستراليا ..

\_\_ لماذا تبكي يا هذا ؟

\_\_ هربت من الغربية فوجدت نفسي في غربة أخرى .

\_\_ أين تذهب تلك الحافلة ؟

\_\_ لا ندري، لم نجد غيرها تأوينا .

تسمر مكانه، صرخة قطعت نور النهر فأوقفته . تاه في افكاره، قرر البحث عن اليقين في شوارع مدينته وأزقتها الضيقة، طاف ضفاف نهرها، تجمّد تحت سقفها المكشوف، استنشق هواءها العليل، داعبته نسيمات خفيفة .

- أنني حر، لقد انكسرت القيود، الحلم تحقق، رجعت ، ضميني يا من أضعت

عمرى وأضعت شبابي انتظارك لك .

لم تضمه الحانات، لم تبتسم له الشيطان، لم تظله الأشجار . المقاهي ترمقه مندهشة، والمآذن تدعوه للصلاة .

أضاع سبيله، فقد تقاطع بيته وابتعد عن عائلته، قرر الرجوع إلى حيث "حافلة الذكريات" . سيتلو على الحاضرين صلاة الغائب .

- لم رجعتَ يا هذا ؟
- أخشى عدم قبولي . الغربية مسحت ملامحي، لن يتعرف عليّ أحد، أصبحت هرماً واقترّب موعد إسدال ستارتي . سأغادر حيثُ تغادرون .
- لم لا تجرب حظك أولاً ؟
- حظي! ما بالك يا هذا تتكلم وكأنك الشيطان .
- أقول لك الحقيقة، هنّ فقط يتعرفن عليك .
- من هن ؟
- الأمهات . لا تقل زوجات ولا أبناء .
- لكن أمي توفيت منذ سنوات .
- إذا سأحفظ لك مكاناً هنا داخل الحافلة .
- لن تكن تلك الحافلة اللعينة استمراراً لقطار الموتى .
- إنها تحمل الآلام .

الآلام، ما أظفها من كلمة، تلاحقه حتى هنا، في حضن بلاده، أي نزييف داخلي هذا الذي يرفض الاندمال؟

-25-

بضع خطوات ويكون مع طفليته، النيران تشتعل في صدره، قلبه ينفطر ألماً، أطرافه تتشنج، ركن في زاوية مظلمة، تاه في بحور الساعات حتى منتصف الليل، فقد شجاعته، أرهقته الأسنلة، التخيلات غيبته عن الوعي، أنه أضعف مخلوق على وجه الأرض، أضعف من نملة .

أستطاع وصول مدينة الطفولة ويخشى ملاقة الأعراء، دقائق معدودات وستكون



غادة وهادية في حضنه ، ترى هل ستسحبان وتفرّان منه، هل ستستقبلانه بفتور ؟ أم أنهما ستصطنعان الضحكة ؟ إنه على بعد بضعة أمتار منهما، الجميع نيام، العتمة تلف الصمت، تحيطه، هي فقط دقائق قلبه السريعة التي تعيقه، يرى حجرتهما من بعيد :

- كم أحبكما، لوعة الشوق إليكما دمرتني .

جرّ قدميه المتعبتين نحو باب العمارة المفتوح، كانت الغارات سبباً في اقتلعه وهدم قسم كبير من الجدران التي أنكشفت عنها الشرفات فبدأت معلقة في الهواء، تراحمها أضواء الشارع المقابل فكشفت أعماق الشقة .

استيقظت هادية لترى والدها أمامها، فركت عينيها، جحظت به ومن بين رموشها الثقيلة تراءى لها كشبح ودود، يستعطفها بنظراته المتكسرة .

- من تكون ؟

صمت صارم، لزم مكانه وهو ينظر إليها بحنان، يترقب ردة فعلها، كم أراد احتضانها ومسح شعرها بيده . الآن بالذات لن يكون اندفاعياً، لهفته لتقبيل عينيها ووجنتيها لن توقعه في الخطأ، اشتياقه العارم لتعريف نفسه لها يمكنه تدمير توقعاته، لن يبوح لها بسرّ الأبوة، سيدع الالهة جانباً، سيقفل فؤاده داخل صندوق من حديد ريثما تواتيه الفرصة الساتحة، سيسدل جفونه على نظراته الحنونة ألا تكشفه لن يقول لها :

- أنا والدك يا هادية .

ليس الآن، يريد المبادرة، أما تقبله، إن حصل ورفضته فسيرجع أدراجه حالاً ، إلى " حافلة الذكريات " هناك مقعد خاص به، حيث الرجال المنسيون، الأحياء داخل الذكريات والميتون في عيون عائلاتهم وأطفالهم .

لن يفوت عليه فرصة الهرب إذا تنكرت له أو حتى إن حجبت وجهها الجميل عنه . تمنى في دخيلته أن يكون مقبولاً ، حتى لو فقد صورته في مخيلتها .

صمتت هادية، صمتها أوقعه في شرك الخوف، تمنى مغادرة الحياة قبل سماع نكرانها له .

- أفضل الموت على أن تنساني طفلتاي !

ربما ظنته فاقدا للحياة .

- كيف لي تجاهل الحياة والاعتزال عن الدنيا خاصة الآن وأنا قد أصبحت في معيتكما ؟

أحتقنت الدماء في وجنتيه، جبينه يتصبب عرقاً، علق لسانه، إنه لا يسمعها، قتلته في صمتها، أعدمته في تردها، لقد رفض حبل المشنقة من أجلها وها هي تنصبه له الآن، تعقده، تعلقه كما علق وعقد لسانها :

- تفوهي يا ابنتي أرجوك، قولي أي شيء، لقد أرهقتني الانتظار!

استطاع الصمود ببسالة كل تلك السنين في وجه الحروب، الاضطهاد والنفي، إلا هذه اللحظات، لن يستطيع اجتيازها، إنها أقوى من كل شيء .

- " أصبر يا صارم، بعد الصبر يأتي الفرج . "

ارتعشت أوصاله، ارتجف جسده، أدار نظره في الغرفة يبحث عنها :

- " أين أنت حبيبتي، كم أردت أن تكوني معي الآن بالذات . "
- " إني معك بروحي، لا تخش لحظة اللقاء، إنها أسمى لحظات الوجود . "
- " أشعر وكأني في مأزق . "
- " لا تتردد، إنتظر، ستكون أسعد أب على وجه البسيطة . "

تحركت هادية داخل سريرها، استيقظت، فركت عينيها وأزالت عنها غطاءها .

- هل تهربين مني يا صغيرتي ؟

تناولت يده المرتعشة، تتحسسها، تقبلها :

- أبي، أنتظرتك طويلاً !
- إني لا أصدق نفسي، هل عرفتني يا صغيرتي ؟
- كنت دوماً معي!

تعلقت بعنقه، أخذها بين يديه المعروقتين، إنها في أحضانه، بكى مرارة، شهق مثل يمامة جريحة، تعلقت به، تمسح دموعه بكفها الصغيرة، كأنه ابنها وهي أمه، أراح رأسه المتعب بين يديها عثر أخيراً على وطنه المفقود، جذوره الجافة ترطبها عبراته الغزيرة، مسح بلاط الأرض بكفه، يقبله .

- لماذا تبكي أبي ؟
- إني أروي ظمأي بدموع الفرح، لا أصدق نفسي بأني أخيراً استطعت ان ألمُ شملكما أنظري ماذا جلبتُ لك .
- ما هذه يا أبي ؟
- إنها دميته التي طلبتها مني سابقاً .
- متى ؟
- ليلة الفراق المشؤومة ... قبل عدة سنوات .

" نبوتك تحققت يا شמוש إني أسعد أب في هذه الدنيا، الآن فقط أشعر بأني استحق هذا اللقب، العالم أصبح كاملاً ، أرجع إلى جذوري امتدادي واستمراري في الحياة " .

- " بالابناء فقط تتم هذه الصفقة ."
- " عمّ تتكلم ؟"
- " عن أعظم وأثمن صفقة في الحياة، فبهم الوجود ."
- " ماذا تعني بهذه الصفقة ؟"
- " أن يكون لنا أبناء، إنهم امتداد لنا، نُعوض خسارتنا بهم، سأبدا معهم من جديد، فبهم التجديد والتجدد، سأنسى معاناتي، بمعيتهم ستعود الروح إلى جسدي ."
- " أراك أصبحت رجل الصفقات، ولم أنل منك إلا صفقة الفراق ."

-26-

وصلت شמוש إلى البلدة الواعدة، جابت شوارع المدينة بحثاً عنه :

- لقد غادر يا سيدتي.

- متى؟

- قبل أسبوع تقريبا.

نظرت في وجوه المارة والمتجولين، ماذا لو ظهر من بينهم؟ في هذا المكان رأته أول مرة، ذلك الرصيف ما يزال يحمل آثار قدميه، وذلك الشارع، وتلك الشيطان هل استطاعت غسل جروحه؟

الأقدار تكتب علينا والأوقات تمر لتصل الموت، إلا أنت يا شيطان تبقين شاهدة على الحدث .

دارت حول نفسها، تتخبط في أفكارها، إنها تنازل الواقع المر، تصارعها الذكريات، انحنى قامتها المهزومة أمام رحيله، اختفت بسمتها، خذاها النديان جفاً، شحب لونها، مسحت جبينها من عرق السنين كأنها تزيل عنهما آثار السعادة فتستبدلها بخطوط الحظ السيء، عزلت بأناملها شرائع أنوثة ضائعة، كأسها ما تزال مليئة، تتحمل ومنذ قرون بحرا من العذاب .

تتسلل إلى بقايا وجوده في بيته، تخترق غابته الصغيرة تسرقها الشمس الحارقة، تبدو الأشجار صفراء، لم تعد تتراقص على أنغام الهواء العليل، الأوراق الباكية تسد عليها الدرب الضيق وطأت أرضاً تعج بالذكريات، حتى وصلت باب الخشبي، ظهر لها حالك السواد، لمستته، مررت راحتها عليه، نهشتها خشونته، إنه موصد، قفل الضياع عالق فيه . سررت بنظراتها الماكرة داخل الدار عبر ثقب الباب فصدمت بجدار خالٍ تألفه وبقلب خافت تناديه .

- صارم، صارم، أخيرا جنتك، أين انت؟

نادته في أعماقها الجريحة، طوت أوتارها المبجوحة داخل حلقها، كانت الغصة سبباً فيها. ملأتها أصوات وصور الحاضر، صدى بشرى مجيئها يسد الآفاق .

- كم أردت مشاركتك أفراحي، جنت أبشرك بحريتي لأقع في قيود عذاب الرحيل، رحيلك!

جاءت تزف إليه خبر إطلاق سراح زوج أختها من السجن بعد ختام عقوبته،  
احتلال بيتها وطلبه الجريء بعودة أبنائه إليه أديا بها إلى قرار خطير :

- سأحيا من أجل نفسي بعد اليوم .

سلمته عهدة عمرها وكأنها تسلم خزنة السنين، وبقلب فاتر تدع العهدة بيد أب  
ظالم، لقد ظلم عائلة بكاملها، دعت السماء لتعاقبه لأن عقاب السجن لم يكن منصفاً  
بالنسبة لها .

- جئت تسلبني بؤبؤ عيني .

- إنهما ولداي .

- كيف ستعوضني ليالٍ من نار وأيامي المسروقة ؟

- سادعك ترينهما متى شئت .

هدم شموخ جبالها الشاهقة وحوّل ماءها إلى سيول من دماء والحقيقة إلى أشباح  
متراقصة، ذهبت تبحث عن ثوب زفافها بين الأنقاض، آثار الأيام المعطلة، تغوص  
بينها بيدين مرتجفتين، تمر ساعاتها، دقائقها وثوانيتها بين الجدران الكنيبية بدموع  
الشقاء، تذهب بمخيلتها نحو الوجوه التي أحببتها، لم تعد تألفها، أصبحت غريبة  
عنها لقد تبخرت مع تعاقب الفصول، عبر السقف، إلى الزوال. أظهرت الثوب، إنها  
لا تخطئ، تبصره بكل وضوح، أصبح كفنًا يحمل في طياته صرخات الأم، وعودًا  
مزيفة وآهات ماتت .

- "كم هما متشابهان !"

- " من ؟"

- " الثوبان ."

- " أي ثوبين ؟"

- " ثوب عرسي الذي خدعني، جرحني حتى نهاية عمري، فأصبح ثوباً ينتظر  
خروجي من دائرة الحياة، يأخذني إلى الأبدية ... بلونه الأبيض . " تكلم  
نفسها.

- أرجوك، اغفري لي أخطائي، لم يبق سواك يغفر لي .

- إن الله غفور رحيم .

- سأذهب إليها .

- من ؟

- زوجتي، أقصد إلى قبرها كي استميحها، ربما تغفر لي، سأساعدها على تعويض إبني السعادة التي حرما منها .
- إذا أرجوك أن تأخذ هذا معك .
- ما هذا الشيء .
- إنه فستان عرسي .
- ماذا سأفعل به .
- إدفنه في أي مكان في المقبرة إياها، لا أطيق وجوده قريباً مني ؟ سأخلص أخيراً من الماضي، سأستقل آخر قطار .
- أي قطار ؟
- قطار الزمان قبل فوات الأوان .

رجعت أدراجها على رؤوس أصابع قدميها، تخطو نحو مخرج الغابة المكونة من ست شجرات عظيمة كانت شواهد على قصة حب مجنونة، ضُفرت أحداثها بصفائر من ذهب، إنها "تخرج من الجنة".

أصداء صوته تأتيها من الداخل، من بين شقوق الجدران :

- " راحل أنا بلجتي ، ممتطياً سهوة ذلك العباب . "
- " جنتك مودعة قبل الرحيل . "
- " ها هنا تعبت كثيراً في المجيء وفي الذهاب، ما عادت خطواتي تحملي وأنا الذي أناجي قدراً أسميته الركابا . "
- " تعجلت الرحيل . "
- " أجلت ما تبقى من رحيلي، فأنت ذاكرتي وتذكرتي للذهاب . "
- " إذا أين تكون ؟ "
- " كلما أخطو ميلاً إليك أعود وأرتدي الشباب . "
- " أنا هنا بانتظارك . "
- " لا تنكسي راياتي يا أنت فنحن وإن ابتعدنا سنظل أحباباً . "
- " غادرت إذا . "
- " أرسميني بدم لونك فأنا بدون لونك سراب . "
- " لم أودعك . "
- " لا وداع . "
- " هل سأراك في يوم من الأيام ؟ "

- " ليس لدي سوى ذلك العش . "
- " سأنتظرك . "
- " معقول ؟؟ أعود إليه يوماً أم سيأكل الزمن كل ما تبقى في يدي؟ "
- " لآخر مرة تسمعه يقول :
- " وداعاً أيها القدر، وداعاً أيتها الكلمات، هوذا مأواي ينفيني . "

-27-

تلاشت خطواتها في ضباب الطريق، طريق العودة إلى الماضي، ما من أحد يتقن الرقص وحيداً، تحولت حلبة الرقص إلى باحة فراق وهجران، القواعد لا تتبدل، حتى عندما حذرتها والدتها من الرقص وحيدة أمام مراتها .

- " الرقص لا يكتمل إلا بأثنين . "
- " أتمرن فقط . "
- " بل إنك تنحرفين . "

أي انحراف قصدت، انحراف الأخلاق لحركات ساذجة أم انحرافات مرآة الحقيقة .

- " لا تتصرفي كالأطفال، ألن تكبري أبداً؟ "
- " بلى . "

ما أسهل الكذب (بلى) تعني نعم . لكنها في داخلها ما زالت طفلة، بل أرادت بشدة أن تبقى هكذا .

- " لماذا عليّ التصرف كالكبار وبماذا يتميزون ؟ "
- " يصبحون أكثر ذكاءً . "

الذكاء وحده يسبب الخوف، فكيف يمكن للخوف والجرأة أن يتحدا؟ الصمت وليد الخوف والرقص وليد الجرأة، أن تصبح فتاة مغناه التخلص من أعباء الطفولة إلى كبت الحريات . التصرفات الطفولية وحالة الحب مذهبان متساويان، العواطف تأخذ مسارها الطفولي، تنتكر بذكاء لوجود العقل فيضطهد ويغادر الوجود .

" يخيفني الطفل الذي بداخلك ..."  
 " أتعتني بالطفولة الساذجة ."  
 " بل العكس، إنك طفلة حادة الذكاء ."

لم تعد إلى حصانها الأصيل، فقدت الأمل في تحقيق حلمها المزدوج، لم يبق لها إلا صدى الأصوات، الحاجز الأقوى بينها وبين المستقبل .

" كم مرة طلبت منك عدم الاعتكاف داخل هذه الحجرة ؟ ."  
 " إنها تخصني وحدي ."  
 " الوحدة قاتلة ."

ترى هل كانت تعلم والدتها بأنها ستمضي أيامها وحيدة ؟ يقولون أن الأمهات يعلمن بمصير أبنائهن، أي إحساس عظيم هذا الذي تحسه الأم عن أبنائها ؟

" صدقيني، كل ما هو مكتوب على الجبين تراه العين ."  
 " وماذا ترى العين ؟ ."  
 " أرى أن ابنتك ستمضي في الحياة وحيدة ."  
 " لا قدر الله، من تظنين نفسك ؟ ."  
 " لي رؤية لا تخيب أبداً ."  
 " ماذا ترين أيضاً ؟ ."  
 " أرى بها حدة الذكاء، قوة الإلهام، عظمة الجاذبية ومرارة الحياة ."  
 " أرجوك لا تعقدي الأمور، إنها ما تزال دون العاشرة من العمر ."  
 " نعم أدري سوف يُغرم بها الكثير من الرجال ولن تحظى بأيّ منهم ."  
 " ألا تصمتين !؟ ."  
 " دعيني أرى كف يدها ."  
 " لا لن أدعك ترينه، ماذا ستقولين عنها أيضاً ؟ ."  
 " إنني أقول الحقيقة، ابنتك تتمتع ببريق عينيْن أخاذتين ساحرتين ."  
 " أرجوك لا تتكلمي، سمعت بما فيه الكفاية ، لقد أصبحت أخشى على مستقبلها ."  
 " ."

ورحلت بها الذكريات إلى أيام الصبا، نهلت العلم بشغف غير معهود، رغبتهـا الجامحة في النجاح أرعبت المحيطين بها، استهلكتها الساعات، وافنتها الأيام .



" ما يحيرني بكِ يا ابنتي حزنك الدائم بالرغم من تحصيلك الهائل، تبدين كوردة  
نضرة مغلقة".

ربما حزنت تمهيداً لمستقبلها القاتم، استطاع صارم تصوير مستقبلها بلوحته  
القائمة الأولى وفي لوحته الثانية كانت الألوان زاهية مفعمة بالحياة .

" أختاري الأصباغ التي تغريك لتكتملتها، إنحي الوجوه من حولك الحياة ."  
" أي تكلمة تصبو إليها يا صارم؟ "  
" اترك لك حق الاختيار . "  
" إنها كاملة بالفعل لا ينقصها سوى ..."  
" نعم ينقصها ملامح أعظم امرأة في الدنيا . ..."

أجهشت بالبكاء وبرهافة دفعت يدها داخل دولابها أخرجت برهان الفراق ونزلت  
به إلى مرسمها، وضعت نصب عينيها، لمستها باناملها، تحسست بقاياها، مرغت  
فرشاتها، أكملت خيوطاً ناقصة وشدت هالات باهتة .

" أبقى لك لوحة لم تكتمل . "  
" لِمَ ؟ "  
" أكملتها . "  
" لِمَ ؟ "  
" إنها تعود لكلينا . "  
" لِمَ ؟ "  
" كي تصبح لوحة مشتركة . "  
" لِمَ ؟ "  
" أردت أن تحل مكان حلمنا المزدوج الذي حلمنا به مراراً . "  
" لِمَ تعذبي كل هذا العذاب يا صارم ؟ . "

تقلدت وسام الصبر، بلمساتها العفوية ستنجز ما تركه لها من إبداع، لن تخطط،  
بل ستدع الريشة تسبح بحرية كي تبرز القوى المشتركة، ستخوض معركة الألوان،  
ستمتلك مساحة الحياة المشرعة على حلم ما زال قائماً، يربط بين اثنين، حتى لو  
تباعدت بينهما المسافات .

هكذا تدعه قريباً منها داخل لوحة رائعة أسمياها " واجهات " . "باللوحة الخالدة

"حلم بها عروساً تنتهياً لفستان عرس و "بالواجهات " أتخذها شريكة حياة تواجه معه العالم والذكريات . لكن أين ستضع " اللوحة الخالدة " الآن ، ألا تشبه فستان زفافها الذي لم ترتده ؟ !هل تودعها داخل المخزن أم تتركها أمامها فتزيدها شقاء وحرماناً . كم خشيت أن تقضي على الحلو والمر، لكن دائماً تنظر إلى المصاعب بتفاؤل وتعمل حسب نصيحة والدتها :

" تفاعلي يا ابنتي، إنه بعد التعب راحة ."  
 " ماذا أرادت "بالواجهات " هنالك هوة عظيمة بينها وبين "اللوحة الخالدة ؟"

إنها تغزو جميع الواجهات، وجودها يخون الأحلام، يمين يسار، شرق غرب، فوق تحت، أمام خلف . لم هي مليئة بكل هذه الوجوه فاقدة الملامح داخل الخطوط وخارجها، تحتل الأطراف، أيها حول ... مساحة من ..تهيمن على ...السبيل إلى ...جسدها، جسده، أجسادهم !بين أل...؟ حتى الحدود ...؟ قسمت أل ...؟ لو أنتزعت أطرافها يبقى الوسط وإن خففنا تركيبتها من الأسفل فستبقى تحتفظ بالوجوه، إن قصصنا جزءها الأعلى فتبقى الشخصية الرئيسة تحتل المقام الأهم، وحدها بيديها الكريمتين أخافه حزنها فعجزت ريشته عن إبراز جمالها، أو أنه رأى وجوه جميع الخلق فيها ؟ أشتهاها، عانقها، رحل معها إلى عالم آخر، صمت ودعاها تتكلم، ضحك لها بينما قلبه ينفطر ألماً، ابتسم بنية إخفاء حزنه العميق الذي نهشه، سبح في عطرها حتى أبتعدت مرغمة، تُعلق عيونه . تلهبها جمرًا ثم تختفي، لم تكن من المنسيين ولا من عابري السبيل .

-28-

في "الواجهات " يضيئون لها الطريق بالمشاعل، تودّع عتمة السنين، يمنحونها النور، رغبة ملحة نحو السعادة المفقودة، أسرار الظهور، الوضوح ووداعة المراوغة، تحول الإلتواءات، فتخلي أماكنها للنقاوة، يتوجونها بتاج القوة والوقار، يضعون بين يديها عهدة ثمينة، حياة العديد، ينتظرونها على الجانبين، يفسحون لها السبيل . بدا وجهها متألّقاً مشعاً، ألبسوها أفخم الملابس، تتأثر بالألوان الزاهية التي تدعو إلى السكنينة . تعاهد نفسها الأخذ على عاتقها مأل الآخرين .

لقد أصبحوا أسرى المرأة، لم تعد وحيدة أمامها، بل وشموها بقيود الخلود، حساب سنين لا ترأف، شاهد طفولة مخضرمة بالصبا، ثم حاضر كهولة فشيخوخة حيث

تنتهي البدايات .

المرآة وأرقها الدائم، إن غابت، عاجلاً أم آجلاً، يكون مصيرها الرجوع إليها، ترصد لها خطواتها الواهنة، كبنديل يحمل الآهات إلى الإعدام والأرواح إلى العدم، إنها أداة تصوير تسدل الأحداث، تميت القلق داخل غموض الموت، ينتهي الهلع وتقطع الحبال وهي تنتصب في مكانها بإصرار، تحتل صدر الغرفة، تعكس شعاع الشمس مُعلنة البدايات وتمحو في الوقت ذاته آثار قمر عتيق، لا تتهاون في تقديراتها، صريحة لدرجة الانجماد، تقبع داخل حلقة الظلام أياماً طويلة، تحمل أصداء فصول الشتاء الكئيبة بصمت مهيب .

" ترمقيني دائماً، ثرى ماذا تريدين، بعد بلوغي منعطف الطريق الحاد، لا اسمح لك بالانتقاد، دائماً تسخرين مني ."

" بريقك لا يشيخ أبداً لا يمحي ولا يخبو ."

" بل أحمل على كتفي أعباء الشيوخوة الطاهرة ."

" إنك تشعين جمالاً كالبرق تماماً، الذي يبهرنا نوره النابع من بين السحب الثقيلة السوداء ."

" إنك تتعاطفين معي لا غير ."

" عهدتك منذ إنحنائك الأولى، ابتسمت لي فبادلتك الابتسام، غضبت منك وأنت تحاولين التوقف فتتسخ صفحتي الشفافة بيديك الصغيرتين، لقد تركت بصمات الطفولة في كل مكان، حتى بدأت تجيئني بحركاتك المتموجة ملأى بالكحول، أسمع تدمرات والدتك :

" لقد أهدرت زجاجة العرق على هذه المرآة السخيفة ."

" إنها تخلو من السخافة تماماً يا أمي ."

لماذا بدأت الأكف المعرقة تهدر جل طاقتها تمسح الآثار بحذر حتى تنقطع تلك العادة، التلميع، عن ممارسة حفلة الوجود .

" أريد أن أرى نفسي ."

" إنك جميلة حتى لو بقيت أوساخها أطناناً ."

استطاع ذلك الجماد استنطاق الآمنا في مِحنا حتى بانث أداة تتوارث بها الأجيال، يستعملها غيرنا من بعدنا، إنها أبقى من البشر .

" كل شيء أبقى من حياة الإنسان . "

ما زالت تحتفظ بآثار الطفلين وأشياءهما، أصواتهما البريئة ملاًها، صراخهما الفاطر للقلوب وضحكاتهما الموعلة أغرقتها .

كانا شتلتان غُضتان كبرتاً فأصبحتا شجرتان تنازعان الفضاء، نثراً ابتسامتهما، اقتحمت خطوط الحياة، نفثاً روحيهما فتوهجا كقرص الشمس .

بدت مقطوعة الرأس بدونهما، أماتها لحظة الفراق، إنهما ما زالا يحومان حولها، يلدغانها بقبلاتهما . لكنها سرعان ما فقدت وعيها وصمّت أذنيها تحديق باللاشيء ، تتخبط بالصمت المريب كأنياب مفترسة تنال منها، وفي ساعة غفلة وجدت نفسها وحيدة، تحت سقف منخفض، تتأرجح عارية داخله تخنقها رائحة غبار السنين كنصب تذكاري للشهداء، تنتصب، تسجل حسابات الزمن .

- أرهقتي الجلوس أمامك ومحاكاتك، دعيني ألمم بقايا ثروتي في الحياة، أكون أو لا أكون . كم من المرات أتخذت فتاة لها وردة تقطع أجزاء تاجها المتألق بالسؤال :

" يحبني، لا يحبني . "

" ولد، بنت . "

" يعود، ينسحب . "

" يسخر مني، أم هو جاد . "

" حياة، أم ممات . "

فتصبح الزهرة ساقاً بلا تاج، تنصرف عنها هيبتها، تفقد سمّوها، تُهمل، تُطرح أرضاً فتفارق الحياة في عاصفة هوجاء .

أتركيني يا هذه، أنكِ تُقربيني من الجنون، إرحلي عني، لا أريدك في غرفتي .

رحلت "شموس" طرقت الباب خلفها فاهتزت أركان البيت بكامله، سقطت المرأة، تفرقع البلاط بضجيجها، وكأنها تتآمر مع الشيطان، أطلق صيحاته التي تنير أشمنزاز السامع، انتشرت قطع الزجاج في كل مكان لتعلن رؤية الزوال، إشارات الانهيار. ثارت داخلها نشوة الانتصار، أخيراً تتخلص من ذكريات الماضي والحاضر،

لن تشهد على غموض المستقبل .

لم يعد أحد يتقصد مهمة العقاب على هذا الذنب، جميعهم رحلوا ... استطاعت إثارة حفيظة والدتها في كل مرة كانت تلقي بها زجاجة الحليب خاصة الطفولة فتتحطم داخل جرن غسل الصحون، بعد التهامها ما تحويه من العصيدة . كأن من يعاقبها بغضب متوهج، تعاود الكرة مراراً وتكراراً حتى بعد إيلاها الغضتين .

" إنها المرة العاشرة التي أحذرك بها عدم التصرف بهذا الأسلوب . "

" ألم تدري يا أمي الحبيبة أن حركة الإسقاط هذه دالة على حب الاكتشاف، كالرقص تماماً، الدوران امام مرآة ملعونة للتوّ تهشمت . الغبي وحده يتمتع بمهارة الإتقان، والدكي يتوقف منذ دورته الأولى، والمحبط يتهم الأرض بعدم دورانها، لأنه أبداً لن يقوى على إتقانه، كم ألححت على عدم تهشيم تلك الزجاجة الصغيرة كما ألححت على ضرورة التزامي الصمت، لماذا هل توقعت أن أولد وأفارق كصنم أبله ؟ "

" لا تقيمي الضوضاء، الزمي الصمت، لا تتكلمي . "... لا تلمسي أشياء غيرك "

"!

أرمق الأشياء بكره عظيم .

" لا تبعثري ثيابك، يجب أن تتعودي الالتزام . "

انتظرت طويلاً حتى جاء اليوم ونبشتها جميعها، بعثرتها داخل الدولاب وأوصدت بابها بالمفتاح الذي بات طوال الليل تحت وسادتي .

" لا .. لا .. لا . "

كم سعت خلفي اللاعات؟ أفزعتني، كانت ترعيني ككابوس، تستوطن داخلي، تسير في عروقي وتدمر أشيائي .

حتى لارتداء جواربي الطويلة وملابسي الداخلية أيام البرد القارس كان لك اعتراض .

" دفني نفسك بسرّوالمِ سميك ودعي عنك هذه . "

الحت عليّ دائماً تعليق معطفي خلف باب حجرتي بينما أردته بشدة أن يسكن ذلك الدولاب .

" إنه يشبه العفريت ليلا ، إمي أخشى النظر إليه، بينما يتصارع الظلام وفضاء غرفتي النانية".

أقنعتني بعدم وجود الأشباح بينما حظيت برويتهم أكثر من مرة، سمعت أنبيهم، شممت رائحتهم وشعرت بأذرعهم تهزني إيقاظاً . أرغمتني على حفظ ما أكره وأنقطع عن قراءة الأحلام داخل كتب الأساطير .

لماذا يا "شموس "أصبحت قريبة من الهذيان، تهذين مرارة وسوداوية، ويحك، لم ينقض الزمن بعد، فعلت ما يرضي ضميرك والآخرين .

ما من أحد استطاع تلبية رغباتها المكبوتة وحرية التصرف دون قيود، يوقف خطواتها إذا اندفعت، يمنعها من لعب دور الضحية التي تقودها إلى الهلاك، إلا هو :

" إفعلي ما يرضي غرورك، لن أقيّد حريتك، إنسي الماضي، الآن نبدأ معاً الحياة، أكملني "الواجهات "كما يرضيك ."

إنها باقية، تراها شمس عبر مراتها، القطعة الوحيدة التي رفضت الأبول تصارع البقاء، تشكو عشقها للحياة والناس . انحسر فيض النور في البقعة الحزينة محاولاً إعادة بعض من بذور السعادة . لن ترى نفسها داخلها، أخيراً نجحت في الهرب من الرؤيا المباشرة، ستدع الروح تحلق بحرية بعيداً، تنتقل كما تشاء دون حواجز، تلاحق الأحلام التي انقضت، علّها تفلح بإعادتها وعملت حسب النصيحة :

" أن نحلم معناه أننا موجودون، ما دمنا على قيد الحياة معناه الاستمرار حتى لو باتت خطواتنا ونيّدة، بطيئة تشبه السير على الجمر "

قلما تشعر "شموس " بالإعياء، تتابع سيرها حتى البيت، تحمل حقيبتها على

ظهرها تسرق بها الوجود، سنة تليها سنوات أخرى، لم تدرك حينها إنها سارت أكثر من خمسة أميال وحيدة، تعج في ذهنها أصداء الأفواه من كثر ما مر عليها من تلقين وتكرار الكلمة الحرة وحتى المعنى الغائب .

حتى سبيل الأشجار الباسقة التي اخضرت سيقانها داخل منحدرات من أتربتها الخصبة، غطتها الأوراق المتساقطة على الجوانب. تتدرج حيث الظلال المبقعة بأشعة الشمس الحارقة، تختلس الوحشة تتسلل ببطء فتزعج السكون بقدميها . أسمته " سبيل الحزن الدافئ " تطأ الأمان تحت سقف مشجر، ينغلق في وجه الريح، كاتم الأسرار، تجثو شاكية حرارة الجو .

عشقها لهذا الحزن حقيقة راسخة، تستسلم للهدوء، تتجرد من الواقع، تعد البطولة لأحلامها بحرية تامة، تسبح في الفضاء دون قيود، ملكة تتوج بتاج الحرية والوجود، إنه ملاذها، تهجر حزنها، تطلق العنان لابتسامة رائعة تزيد من بياض أسنانها فتبدون كلالئ انتزعت للتو من أصدافها .

كلما أحست بوحدة النفس أسرع إلى "الحزن الدافئ " تملي عليه شرائعها . يضمها إليه، يُذهب عنها الوجوم، تنتهد الصعداء، تجدد هواء رنتيها بعد أن ترمي إليه أعباءها .

تعتبر شريحة من ذكري، خلوة الراحة بعد التع ، عزلة دهر حتى بعد أن اندثرت آثاره، حيث استبدل بالبنائيات الشاهقة التي ملأتها الفراغات بالرغم من ازدحام سكانها، حوّل المكان إلى أطلال من جليد . بحثت عنه، كان من الصعب اكتشافه، بكت مرارة لاختفائه، أحست بالضياع لكنها أبت الاستسلام . قررت بناء حزن دافئ آخر يحتل حديقة بيتها، تورثه أمنياتها وأحلامها، تعلق إرهاباتها على أغصان الشجر فتتدلى أعباءها الثقيلة إلى أطرافها الطرية، تمتصها الأوراق وتمضي بها إلى غير رجعة بعد أن تذبل إلى الفناء .

أختلست نفس الأشجار، أعضاء تناسل الابتهالات، تستسيغ جودتها تغرسها قريبة منها، تؤطرها بجدار تدفع به عيون سالمي الحريات .

نثرت الأزهار أريجها فترطب النسيم العليل بينما تتخذ لها فسحة تأمل على مقعدها الحجري، هنيهة رثاء . الذكريات تهول إليها مسرعة، تتعثر داخل حصاد السنين .

تراقب بيت ذويها من بين ثقوب الذاكرة، ها هي والدتها بصحبة الجارة أم تيسير  
تحتسيان قهوة الصباح بينما الأصداء تغمرها :

" \_ كم من مرة طلبت عدم تقديمها لي مع وجه . "

تدمرت فوق الاحتمال :

" \_ يا أم تيسير أرجوك عدم الانتقاد . "  
" \_ بل إنك تقصدين ذلك، تريدني رؤيتي لوجه فنجانك . "  
" \_ ولمَ تمنعين ؟ "  
" \_ اليوم حرام، في الغد إن شاء الله . "  
" \_ لا بل أريد اليوم أرجوك، طمأئني على مستقبل ابنتي . "

مسكينة تلك الأم عاشت وغادرت وما يزال الأرق يلاحقها، يلزمها كخيالها، أخافها  
القدر حتى الموت، منذ رحيل ابنتها الشابة غدرًا، غمرتها التساؤلات حول "شموس  
" ولم تحظ أبدًا بالإجابات، أتعبها البحث وحط من قدراتها الجسمية، أصابها بداء  
المرارة الناجم عنه العديد من الأمراض التي لا شفاء منها .

حاولت التقصي عن الحقيقة وحسب القول المأثور "الغاية تبرر الوسيلة . "

أين هي الحقيقة، كم بها من يقين تلك العادة الموروثة، ألا يمكنها أن تخيب الآمال،  
لم ضوضاء العصور أصبحت محتلة داخل قعر فنجان ؟ أحداث مكررة، تهشيم رغبات  
والحاح ضاغط لبلوغ الأمنيات .

قدرات أم تيسير فاقت كل المعجزات، قرأت ما تبتغيه، هكذا يمكنها الرجوع ومعاودة  
الكرة مكررة مكائدها :

" \_ لك مني الحلاوة إذا تحقق ما قلت لي للتو . "

وإن حصل وأخفقت تتذرع بكتمانها المقصود لحقيقة مرة .  
أبت الاتنتان الارتحال عن الدنيا إلا بعد ان أورثاها تلك العادة، تقرأه لنفسها، تحاول  
حل الألغاز، تنقب، تبحث، تنتقي الأحداث من بين الأنقاض، تحاول استرجاع الحلم



المسلوب الذي ما زال يقبع داخل فنجان قهوة .

-30-

ارتاد صارم مقهى الغرباء العتيق، كما في كل يوم، تتجدد الوجوه، يكتظ المكان برجال المنفى فاقدى البسمة، حائري النظرات وشاردي الذهن . باغتته الذاكرة في زحمة اللقاء، طافت به، بعثرته بجنون ولم يحن لها الاستقرار إلا في أعماق النسيان . تحولت إلى فتات، ذرات تحللت وتحولت إلى رماد . احتار في أمر أولئك الرجال، يتحركون أمامه، يتخللون أفكاره ويمطرونه بالأسئلة، علامات أستفهام تزيد من ظمأ التعرف عليهم . لا يمكن الاستفسار عنهم وتقصي أمرهم، سيتهمونهم بالغباء لا محالة . ألحت به رغبة جامحة في الصراخ، لا يمكنه تحمل الغيبة التي ألمت به، "من أنتم، لماذا لم أعد اذكركم ؟" ما الذي تسكع في مخيلته طوال هذه السنين وأدى إلى نسيان كل أولئك الذين يبذون أحباباً فعلاً وإن لم يكونوا كذلك فيكونون أصدقاء أو مقربين، لماذا أجهضتهم الذاكرة ؟

— البعد جفاء يا صديقي .  
 — الدموع لم تجف بعد، منها ما يزال عالقاً .  
 — أيام البؤس في المنفى تنسيك حتى نفسك .  
 — ويلي ذهبتُ والدموع تغمرني رجعتُ وإذا بها تنتظرنني، كأني على موعد دائم معها .  
 — يكفيك تعذيب نفسك، إنها بضعة أيام ويستقيم كل شيء .

بأزماننا نحاول الاحتفاظ بأشياننا الهامة، تبدأ عملية التصنيف المفروضة علينا، فجأة الأولويات تحتل الصدارة، الربح مقابل الخسارة، الهام مقابل التافه، القريب على قلبنا مقابل البعيد عنه، عالمنا يضيق بنا، الحيز الكبير الذي اشغلناهُ سابقاً يصبح بحجم جسدنا فقط، تلغى المسافات، تُعلق السبل، تقفل سدود الجسور في وجوهنا نمنع من الإبحار في نهرنا العظيم وعندما تقيد حركاتنا تشل قدراتنا بما فيها الذاكرة .

— لم تعد الأشياء قائمة في حياتي (كررها دائماً).

تتحول من كائن بشري خطير إلى رجل النسيان، تصبح سراجاً بلا زيت وجسداً بلا قلب، من طائر مغرد إلى عابسٍ يمر عليك بلا تغريد.

تراه ولا تسمعه، تألفه فتظنه غريباً ، يسبح في سمانك، قريب منك ولا تشعر به .  
زعموا بأن الإنسان مخلوق سام متفائل، لو كان كذلك فعلاً لما احتلت قلبه الخيبة أبداً،  
لنر الطيور المتفائلة، تنتقل بين جميع الأشجار، حتى الأشجار التي نالت منها  
الشخوخة.

ويتذكرها على غرة:

- " لا تقل لي أبداً :جئتك من الذكريات، إنك حقيقة مستديمة ."  
" لا وطن لي ."  
" بل لك كل الأوطان، ما دمت تحتفظ بأثمن الأشياء ."  
" ما هو الثمين الذي ما يزال تابعاً لي ؟"  
" إنسانيتك، بك الإنسان يكبر ويزدهر، لم تستطع المصائب سلبها منك ."  
" تقولين ذلك لأنك حبيبتني ."  
" بل أقول الحقيقة ."

المثل العربي يقول : " دق الحديد وهو ساخن". وكانت مرارة الانتظار، انتهاء  
الضحكة، تسميد الحزن فيزداد قوة وعنفاً .

مهما بلغت درجة الانصهار فمصيرها لاحقاً التجمد فتصبح كالحجر الصوان . هكذا  
القلوب المرهقة، صهرت بنار العذاب، انكوت حتى ذابت المشاعر وماتت النفوس بلا  
هواده ولا رافة . هل هدأت النفوس فعلاً بعد الانتصار ورجوع الفاتحين ؟ هل صنعه  
التاريخ أخيراً ؟ وفي هذا العصر !؟ إذا ماذا بعد ذلك ؟ حيث توقفت الأزمان، عندما  
اغتيل العمر ورخصت الإنسانية، بات المرء يساوي علكة والسنين قصائص لبّ .

النفوس المرهقة تحاول التوحد والتواصل، لم أصبحوا أكثر حساسية كأنهم نزلوا  
غير مرغوب بهم، عبناً ثقيلاً على الوجود، لم تعد بهم حاجة، استبدلوا، لم تتوقف  
عملية الإنجاب منذ رحيلهم، لكن ما هو ذنبهم، لقد حلموا دائماً بالعودة، أخيراً  
استطاعت الباخرة التي أوتهم كل هذه السنين . أنزلتهم عند شاطئ الأمان، بعدما طافت  
بهم جميع أرجاء المعمورة، السبيل الذي اتخذها ماجلان تكرر وهم على متنها، لكن في  
زمن وعصر مغايرين، أتيا ، بجموعهم بعد أنقضاء زمن الجبابرة .

جبارون هم أيضاً وحتى أكثرهم حذقاً، استطاعوا الاحتفاظ بعرافة التاريخ والحصول  
على نفائس العلم وبالتفاصيل المملة، من جميع الدول .

أخترقوا العبودية نحو حياة أفضل . لكن الواقع مر، صراع الحاضر بآلام الماضي يغتال قباب النفوس المنهارة فيحولها إلى مقابر مُعدة لهياكل عظمية متحركة، فاقدة الروح والمعنى، كيف تكون الاستمرارية وكيف يتم الالتحام، ربما يستطيع بعضهم التغاضي وتجاهل الأمور فيبقى السؤال قائماً، هل إمكانية بلوغ نشوة الانتصار ممكنة في عصر مغاير ؟ حتى لو بقيت الأماكن نفسها .

أن تنفي حياتك من أجل غيرك معناه إصدار الحكم على نفسك بالسجن المؤبد، إن لم ينتهز الغير فرصة حكم الإعدام ويعقد حبل المشنقة حول رقبتك .

-31-

اهتزت القاعة قهقهة وثرثرة صاحبة بينما تامل صارم لوحة المغني المرحوم محمد القبانجي التي علقت منذ عشرين سنة خلت، يوم وفاته، ما الذي يشغل صارم إلى هذا الحد، هل يمكن للذكريات أن تتحد حتى مع الأموات، رجال الماضي ومنفيو الأبدية .  
تعلق مع اللاحياة ؟ ما نزال نعاركها، معركة الصراع على البقاء، لم يعد البقاء مهماً الآن طالما وُجدت النفس داخل وطنها غريبة، بعدما التهمت الحقوق فما من أهمية للبقاء .

كيف حالك يا صارم ؟

عايش !

جميعنا عايشين .

تكون واهماً إذا اعتقدت أن كل من يتنفس يتمتع بالحياة .

لماذا انت متشائم الى هذا الحد ؟

غدرني القدر، استطاع النيل من حياتي، سلبنى الغالي والعزيز .

أنا واثق من أنك ستجد ضالتك قريباً .

إمنحني بعض الوقت يا صديقي، كل جزء من جسدي بحاجة إلى التغيير والتأقلم

مع الجديد، أحاول ترويض النفس منذ وطأت قدمي أرض الأجداد .

أشترك في نقاشنا الثقافي، عهدناك المبدع الخلاق ؟

نعم، فقط أجتاحتني الذكريات .

يجب أن تتخلص منها يا صديقي، أقض عليها قبل ان تقضي عليك ..

- هل يمكنك ارتداء بدلة فوق بدلة ؟  
 بالطبع لا .  
 ماذا اذا .  
 يجب أن تخلع الأولى أولاً .  
 هل تريدني أن ارتدي الجديد ؟  
 نعم، اقصد القديم، يجب أن تُرجع إلى جسدك بدلتك القديمة، فهي الأصل، ورمز  
 انطلاقتنا .  
 أخشى إنني فقدتها .  
 بل يجب إرجاعها حالاً .  
 لكن البدلة لا تعود لهذا العصر، فسوف أبدو بها مضحكاً، مهرجاً أو مجنوناً .  
 يمكنك المحاولة .  
 إنني أحاول منذ رجوعي .  
 نعم، لن نتركك ، إنا في أنتظارك فأنت كبيرنا .

بالرغم من استقرارهم في حضان الوطن، بقيت بصمات الألم تغزو ناظرهم، دموع  
 العودة وأفول النظام الفاسد لم تستطع محوها، لا يمكن أن تبرا الألام بسهولة  
 سيحملونها معهم، حيث النهاية إلى طريق الشفاء، سرير الموت .

-32

تراكمت الصحف المغلقة على درج مكتبة، لقد ملّ قراءة أي شيء يحتوي  
 سطوراً مطبوعة، حاول جاهداً الاستغراق في محاوره القلم، الحرفة التي كانت سبباً  
 في انحراف الحياة ففشل . حاول ممارسة ابوته الشرعية، فهو دائماً خالق البدايات،  
 مسيرة تبدأ حيث المحطة الأولى، عتبة بيت داخل حي يتوسط مدينة أوروبية عريقة  
 تتوشح أوسمة التاريخ، عاصمة بابلية تخلد هادئة في ملتقى نهريين خالدين، ملأى  
 بالجسور، ملتقى الحضارات، الأجيال، والآباء بالبنين، تلاحم العيون والقلوب،  
 مصدر الأصدااء ووفاء الوعود، بقعة تكفكف دموع الترحال وروعة اللقاء . طريق  
 تعددت فيها الخطوات، أبطل الماضي لكن لم تزهق الذكريات .

ضاعت الكلمات من أفواه الثلاثة . وما الذي يقرب القلوب غير الكلمات . يحاول  
 افتعال الحدث، إنه صانعه، لماذا يضيع منه الآن، يجب أن يتكلم والتكلم أصبح عادة

راسخة فيه، ذابت الكلمات تحت لسانه، هي الابتسامة أداة التستر، لم قصيرة لحظاتها، سرعان ما يبطل مفعولها فيبقى الصمت رائد المسيرة. فقد شهية الكلام، أداة الوصل، تباعدت الأرواح بالرغم من تشابك الأيدي، عجوز مرهق مقابل فتاتين متشوقتين للقاء الأب، تطالبان بسداد ديون مستحقة، ضرائب متراكمة وعقد تجديد، يحاول استذكار مشهد طفولة تكون به بداية الرحلة، جهد لإيجاد سبيل يحقق فيه أمجاد مستقبل آتٍ. بيد أن الماضي أصبح ضمن الأنقاض، تماماً مثل شريط يتقطع أثناء عرض فيلم سينمائي طويل، التكملة تكون فقط بالتحام كلا الطرفين، أين هما؟! أي شيء قبل انقطاع ذلك الشريط، مكان، أثر، صوت، صورة يمكنها المساهمة. نعم هنالك صورة في مكان ما، بواسطتها تسترجع الأحداث. أسرع إلى رقب مكتبه، سئم البحث، ليس هناك ولن يكون أبداً لأنها لم تعد هناك.

" في أي مآزق أنت يا صارم؟! حاول إثارة حماسهما بسرد قصة ففوجئ بأنها سخيفة، أو ربما طرفة من طرفاته فلم يفلح، أفتعل حديثاً تافهاً، وجد نفسه يملئ عليهما همومه وكأنهما الأب وهو الابن. طفل يتكلم في داخله، إنه لم يفقده، يحاول كتم صراخه .

يشتكى :

- لا تكفيني سنة من الصراخ المتواصل!
- إصرخ كما يحلو لك انها الطريق الوحيد إلى الراحة .
- أبنيتاي أذابني الفراق، وحدتي فاقت كل النفوس، كم احتجت للمسمة يد .

حضن يحمل أعباءه، أحد يمسح عنه عرق الحمى. مرات عدة تمارض متعمداً، تراجع إلى أيام الطفولة، انتظر طويلاً أما، امرأة، حبيبة تُذهب عنه أعباء المرض وتعاوده الذاكراه:

- " ويلي عليّ بني، الحمى تلاحقك، دائماً هم الوحيدون معرضون للأمراض".
- يتعمد التهام الطعام بشراهة يتوق إلى من ينصحه :

- "أهتم بوقت الغداء وكل على مهلك، كما تهتم بكرة القدم . ..."

يتلذذ بقذف الحجارة داخل النهر الهاديء مكرراً بهذه الحركة أيام الشقاوة :

- " صارم، يا بني يا شقي، ستملاً النهر حجارة وتأخذ مكان الأسماك إذا لم

تكف عن ذلك".

- أشتاق لبرهة يسمعي بها أحد ولا يحجب عني وجهة، الراحة داخل قلب يشفق على حب أندثر بمياه أفروديت ودجلة، لحظة إغفاءة في سرير مزدوج. البرد القارس هزمني، الصدى كان صديقي وعويل الليالي السوداء قتلني، تكلمت ولم تُصغ إليّ إلا نفسي، تأوهت لم يابه بي إلا أنا. صرخت فنزحت عني الكائنات بكل اشكالها خشيت تكرار النداء، تحولتُ إلى صنم، هيكل فاقد الحواس .

تماسك أمامهما، لن يبكي، ليس الآن، ربما تهتز مثالية الأب في عيونهما، ممنوع عليه الانهيار .

وصرخ في أعماقه:

- " ماذا أفعل أرجوكما، ماذا يرضيكما ان أكون، ما هي توقعاتكما، إني مخلوق ضعيف، أولد مجدداً في أرض أجدادي، على أرض تنكرت لي، تضمني بشراهة، تخيفني، ترعيني، لن تخمد أشواقي أبداً سأظل عبداً لها .

- " خشيت دائماً الوقوع من السلالم المؤدية إلى داري فلا أصل ملجائي في المنفى فيكون التيه داخل هوة سحيقة، أو الوقوع على الرصيف داخل زحمة السيارات فأموت غريباً، وكم خشيت الوقوع من تلك الدراجة التي أرجعتني إلى بلدي فأهزم قبل شعوري بالانتصار الذي طالما انتظرته، أو أن أكون بينمكا ولا أستطيع ركوب الكلمات وها هنا الطامة الكبرى ."

- " أي نظام كوني ذلك الذي يحتم علينا الوقوع، السقوط، حتماً الذي أوصل نيوتن إلى اكتشاف حقيقة الجاذبية، انجذاب الأشياء أرضاً، أرتطامها فتحصل ردود الفعل، إما التهشم والزوال وإما الخلاص بثبات، "دفعني التاريخ إلى التيه ومن التيه إلى اليقين، وصلت بقدمين ثابتتين ، لكن لساني ما يزال مربوطاً ."

- " أتوق للبكاء ."

- " ولم لا تبكي ."

- " وهل يبكي الرجال، وكان البكاء اختصاص النساء ؟"

- " ولمَ لا، إنه أثنى شيء في الوجود . "
- " البكاء؟ "
- " نعم، فيه تنقية القلب، الروح والعيون، الدموع تجدد الآهات و تنظف صدورنا . "
- " بل إنه ضعف الإنسانية . "
- " أليس الإنسان مخلوقاً بشرياً ؟ . "
- " هل تبكي النملة ؟ . "
- " أي سؤال هذا ؟ "
- " ألا تشبهنا ؟ تروح وتجيء محملة، تمضي حياتها في العمل الشاق، هذا إن لم يدسها أحد بلا رافة . "
- " قصدك القول إننا نشبهها، نداس بحقارة ممن هم أقوى منا بالرغم من تفوقنا وتميزنا عليهم حتى لو كنا صغار الحجم . "
- " إذا إنها لا تبكي . "
- " بالطبع لا، لأنها لا تكثرت لأي كان، تستمر في جهدها لأنها تؤمن بأن العمل حليف كل نجاح . "
- " أشعر بأني نملة . "
- " لمَ ؟ "
- " لأنني لا أقوى على البكاء . "
- " إذا، هنيئاً لك ، سوف يكون النجاح حليفك، عاود الكرة مراراً وستنال مبتغاك . "

-33-

هؤلاء الصغار، ما هو موضوع إلهامهم يا ترى، هل يلاعبها كرة قدم، أتقنها دائماً وحصل على العديد من الجوائز عندما تسابق فريقه مع فريق آخر، كان البطل الرئيس دائماً، أستقبل بحفاوة، جلس على الأعناق وسط الهتافات والتصفيق، لكنهما فتاتان رقيقتان، صورتان جميلتان، تمثالان متحركان يشع منهما النور، كأنهما صنعا بإتقان من الشم ، تنطلق منهما رائحة العبق، ساكنتان يلفهما الفضول :

- " ما الذي يدعكما تصمتان هكذا ؟ لماذا لا تحاولان كسر جليد الزمان وتتكلمان، أستحلفكما بالله أن تعفياي من عقاب الصمت، إرحماني فلو عتي تزداد وصبري ينهار . "

- " إنحهما البداية يا صارم ودعهما تختاران بنفسيهما .الأطفال الأذكاء يتقنون اختيار المواضيع، فقط أصغ إليهما، سوف أرشدك إلى السبيل، أصبر
- " إني تلميذك يا "شموس " سأعمل بنصيحتك، أكثر ما يهمني هو إسعادهما ."
- " أكيدة أنا من نجاحك، الله معك ."

استطاعت الفتاتان الاختيار، لن تدعا الظروف أياً كانت من إعاقة ما بينهما، أمسكتا بيد والدهما المرتعدة، تقودانه في سبيل يستطيعون من خلاله دمج المستقبل معاً .

يدخل صارم بيته يتخبط بأفكاره، يتجه نحو حجرته الجديدة فينزوي فيها مع صور حبيبته، استطاع نقل الذكريات وإيداعها داخلها، أمتأت الجدران بها، وجهها الضاحك يزهو بألوان الزيت.

- " كم تسعدني ضحكتك يا " شموس " عنقها الطويل يحتوي خصلات من شعرها المنثور الذي يتطاير مع النسيم ."

لماذا يبدو الآن حقيقياً ، ذراعاها تدعوان لرغبات مكبوتة، هل تلوحين لي بهما قاصدة .!!ساقاها مجردتان تلازمان حصاناً أبيض . هل ترحلين ؟ !تطيرين في سمانك وحيدة ؟"

- " لا أسمح لك بالرحيل " ..
- تتخلى عن الحياة الثمينة، عنه، عن حلمها، أي زمن يمكنه إرجاع ذلك الحلم الواهم، ابتداء بشموع مضاءة وانتهى بانعدامها، ذابت بمعيتها جميع الأفراح وحصدتها الأحزان . الشجرة المثمرة انتهت قطافها، لم تعد قادرة على العطاء . كم من مرة لازمهما الحلم تحت شجرة التوت، على جبل مخضر تكسوه الغابات الشاسعة، واستمر داخل الأزقة المرصوفة في بلدة تاريخية عريقة حيث صفوف الحوانيت، أبحرا من شاطئ مزمر في قارب أعد لإثنين، حيث أغرقت الأمواج دموعهما، وانتهى به المطاف في ذلك المقهى الساحلي، يتحدى الرياح الداخلية والخارجية، يصرخ ضجراً بفقدانهما، أسوار المدينة شاهدة على عصور غابرة، عجزت عن إلغاء الفراق، والآن



أصبحت روحاً بلا جسد، سقطت الصور عنها، اللوحات تحمل أنفاساً غير مرئية، لحظات تخمدها النيران... التقاء الوجود بالعدم، اندثار كائن مقابل أو هام المنفى ...

- ماذا بك صارم تتخبط بين كل تلك اللوحات ؟ يسأله صديق .
- أتأمل أجمل إنسانة !
- أين هي، لا أراها ؟ !
- هنا .
- أين ؟
- هنا، وهناك، وهناك ...
- لقد نال منك التعب أخيراً، أنهكك، أصبحت إنساناً مرهقاً او ربما الجنون بدا يغزو هذا العقل .
- لن أرضى التنازل عنها .
- لكنها غير موجودة، أنت خلقتها، الآن أصدق فقط إنها "جلاتياك" لن تكتب لها الحياة، أمضيت سنواتك العصبية تحاول نفخ الروح فيها .
- لكنني راقصتها .
- بل راقصت ذلك العباب .

هنالك لوحة مأكرة لم يجسدها ناورته فزادت من أحقاده . تبنت حين قلب مقهور هزمته الغربية، تداعي في حضنها، نفضَ عنه حياة التنسك، رقد كطفل مدلل ينحرف إلى المراهقة فينفضل عن طور البراعة، تتحسس بأناملها شعره، تشعه شهوة، تغريه رائحتها، ينهمر عرقاً، يتحول بسرعة البرق إلى عهد الشباب، يستقصي المجهول. يتسكع بعبثية داخل صدرها، يتضرع المزيد مراوفاً، ينكت اليمين فينشد الغفران.

مأكرة هي الرغبات، تدخلك دائرة المتاهات، تغوص بك حتى تنال منك . تجثو لها، تستحلفها، تبيح لها بمكنوناتك، ينزف دمك المتخثر، لا تستيقظ من حلمك إلا وقد تحولت إلى بقايا إنسان .

الوقت هو قبل الغروب بقليل، حيث أخذت الشمس ركناً منخفضاً في الأفق البعيد

اغتسل بدمائها. تراكت السحب بمهارة أمام أشعتها المائلة، أرسلتها إلى مياه دجلة حيث سبيل العشاق، أكثر المشاهد إثارة، تشابك الأيدي، عناق وربما القبلات ولهفة الأحبة ظاهرة مكشوفة أمام الجميع، الولوج حيث الشاطئ الذي يمتلئ حنيئاً، الخطوات مزدوجة، تتأرجح متعةً، تتخبط على غير هدى، إلا هو يقف بمحاذاة الشاطئ بخطواته وحيداً، المكان لم يخصص له إلا إذا انتظر حبيبته ستوافيه .

اتخذ مكاناً منعزلاً يدون رسائل بلا عنوان . لم يبقَ له سوى القلم يهزمه بجبروته فيرضخ له، يرصع الأوراق الصامتة .

- " حسبك شيعتني وأنا لا أموت أبداً . كلما اثقلت بإبهامك عليّ تتفاقم مهارتي، أنقل أهاتك، أسترسل بالسرد حتى تدخل جنة الخيال فتفوز بالراحة "
- " لا أنشد الراحة . . . "
- " ماذا تنشد إذن ؟ "
- " الحقيقة . "

قهقه القلم فتفاقت حفيظة صارم .

- " الحقيقة تغفل الرغبات، الكون مليء بالحكايات الكاذبة . "
- " لماذا تدعني أهلك في حيرتي وتجلدني ضرباً بالسياط! دعنا نتساوم . "
- " إنك تضطهدني، تغتصب مني روعتي، تبتزني حتى ألفظ أنفاسي . "
- " بل إنني خائف . "
- " أفضل إخافة الحياة لك على أن تفتك بك الحقيقة . "
- " أي نظام هذا ؟ "
- " إنه نظام الكينونة . "

البيوت المجاورة تتدلى في المياه اللاهثة، تتحداه بسكينتها، تحاوره حائرة، هي ذات البيوت المتواصلة وفقاً لقانون البناء، إعمار كل شبر أرض يحاذي الشاطئ استغللت للترفيه والاستجمام، استوعبت الزائرين الهاربين من القیظ . تحمل السقوف

التي صنعت من أخشاب الأشجار وبعضها رُمم بقطع القرميد الأحمر، في العتمة تبدو مغايرة، تتلألأ بأضوائها الباهتة داخل دجلة منبع الإلهام. يتمرد على قيادة الشعوب والعصور. تفوح منه رائحة الغضب كلما وطاته أقداما قذرة، يسخر من سيقان الراحلين المنهزمين، يتهمك عندما يجتاحه الغرباء، يحتضن بجلال أسراه ومعشوقيه، يأبى الظهور إلا بمظهر اللباقة والعزم، كاتم الأسرار، أي سر سيباح لك الآن يا نهر؟ طلاس حكاية، أسراب حقيقة، بقايا ندم أم جبروت الحاضر .

- سأكتب لك عن حورية أخترت الفضاء، تائهة وباتت الآن في بقعة المستحيل أنذرت ألا تخترقه، فُكُتِبَ عليها التطواف والترحال، شردها، القرب أرهبها وأزعجها البعاد، تتطاير منها البسمات، يغرقها الحزن، يستنزفها الإنهاك، لا تحظى بالراحة بل وتتألف مع الأحلام ."

رفع ناظريه إلى أعلى، كأنه يبحث عنها، بعينيه المثلقتين يلمح طيور المساء عائدة أسراباً كل إلى مخدعه، بعد أن لفت الكون بهديلها، تداعب الهواء بأجنحتها الجميلة، تخترق صفحات أفكاره، تتسلل إليه هامسة وقبل اجتياز الماء يكون قد انتزع بعض بهائها، بحركاتها اللولبية تستكين في حضنه، ما الذي تبشر به هاتيك الطيور المسالمة؟ داهمته من بقعة سماء، تدس في حضنه إشارات مرسلّة أو ربما هي مجرد صدفة .  
صرخ:

- دعوني أعتلي سماءكم، أجوبها، أبحث عن حورية على شاكلة الأنس يداها مخمرتان، يكسوها ثوب السكرى، تستحم بماء الورد بمجون، أقبلت عليّ كالصاعقة تختال العباب، أغوتني، أردتني قتيلا ، أدمت وقطعت أوصالي، تتخطى المسافات ويبقى أريجها يلازم سريري .

تلم البويرة المقدسة، ملجأ الملائكة والأنبياء، السماء أصيبت بالتهتك، علامات شيخوخة محتمة، اقتنصتها الخليقة، شارفت على الزوال، لم تعد قادرة على حمل أعباء تلك الحورية فبيعت بمزاد علني مقابل ثروة حقيرة، تتقدم تارة وتختفي عن الوجود تارات.

أنزلت عيناه داخل المياه الخرساء، يتأملها وقد ضمت داخلها أعباء نهار طويل، يجر أثقاله المكدسة إلى الحافة فيلقها ككفن، يسحبها التيار الجاري، ينهال عليها حقدًا وبؤساً فتختفي بلا رجعة .

الرياح الخفية لامست وجنتيه الشاحبتين، بعثت في جسده القشعريرة فأفسدت عليه خلوته، سكن مكانه، شعر بالعجز وتشتت أفكاره، كل ما يفكر به الآن جرعة خمرة، كأس واحدة تكفيه ليغيب عن الوجود، أسلوب عقائدي للتهرب من الواقع، أيقن أن الحمى ستعاوده لأنه سريع التأثر، حساس ورقيق، حالته النفسية المضطربة تضعف من عزيمته، احتشدت داخله رعشة تامل :

- " الخمرة تلائم النفوس الضعيفة . "
- " لمن هذا الرأي ؟ "
- " لي . "
- " ومن تكون ؟ هل أنت حكيم ؟ "
- " بل مجرب والتجربة أفضل برهان . "
- " هل استطعت الفطام ؟ "
- " نعم . "
- " مم فطمت نفسك ؟ "
- " من الخمرة طبعاً . "
- " والعشق، كيف يكون فطامه . "
- " وحده الزمان كفيل بذلك . "

أما أعباءه هو، فلن يكتب لها الزوال، ستلازمه، تفترس حيويته، تأخذ مسار الموت البطيء، تنهش جسداً أصيب أخيراً بعدوى الشيخوخة، تعتصم أفكاره رؤى من الماضي .

- " مريم المقدسة أسألك الغفران، علقت خطواتي أمام عينيك، على واجهة كاتدرائيتك، كوني شفيعتي حتى لو أبحرتُ وابتعدتُ عن مكانك المقدس . "

راح يبحث في أعماق الماضي، تصارع مع صورته، أرهقته الأماكن، باتت المسافات المزدهمة كفيالق جند في يوم استعراض عسكري، غاص بين صفوفها، وجد نفسه داخل اكتظاظ أقدام الحركات الثابتة العنيفة، الصخب الملتزم أشعره بالرهبة، لم يسمح لنفسه التوغل، سيتوقف في محطة طالما أحبها:

- " أفروديت، الآلهة الحرة، أغتسلت بمائك الخالد ففرضت عليّ الخلود، لكن

دون حب، يا آلهة الحب والجمال، أفصحي لي عن حقيقة فتاتي، القيت بجسدي في بحرك الصافي أتوسلك، أشهرت سيفك بوجهي، أنت المسالمة، وتنكرت لوجودي، تنتقلين بين الآلهة حيث الأرواح التائهة، فاتني بالخبر اليقين .

- " ماذا تريد معرفته ؟ "
- " هل فتاتي حقيقة أم مجرد روح . "
- " أنت إذا أصبحت من باحثي الحقائق ؟ لا ترم نفسك إلى الهلاك . "
- " أفضل الهلاك على الحيرة الفتاكة . "
- " أواثق من عدم الندم ؟ "
- " ربما يكون الندم حلاً مقنعاً . "
- " إذا حالاً سيصلك الخبر اليقين . "

-37-

ما الذي يراه يا ترى، أرجوحة تهبط من السماء ؟ بسرعة الريح أتخذت لها شكل مركب وردي، أعدّ لشخصين يمضي ينشد الحرية يهرول إلى قفص الحياة، يعلق شراعه الأبيض، ينساب في نهر العشاق، يخلف وراءه نتوءات مزبدة تعرقل إبحار المراكب الأخرى، بات النهر خالياً مقفراً إلا من ذلك المركب العجيب الذي أندفع على مدار الشمس قبل غروبها، علّه يغافلها فيفلح بانتشال الأزمنة.

جاء دون ميعاد، مترنحاً يستوطن نهر الشجون، يحمل في طياته سحر التلهف والأمنيات. اتخذت لها المقعد الخلفي المكشوف، تظهر عليها علامات التشرذم والإعياء، لقد قذفتها الرياح الموسمية، تغير عليها من كل صوب، تحاول الإيقاع بها، غمرتها المياه المتطايرة، تماسكت متحدية، تتلهف على إنجاز مهمة طالما خططت لها، سبب إقلاعها، قضاء يوم حافل محفوف بالمخاطر.

انسحب خمارها عن رأسها ليتخذ له سطح الماء ملاذاً، يُظهر شعرها المتطاير، يُخفي قسماً وجهها وأحياناً يأخذ مأخذ الريح الشاطحة .

شعّ وجهها، يصانع الأساطير، مبتسماً بنزعتها الملانكية، يخوض التيار بكبرياء، الخوف يقتحم عينيها الضائعتين، يغمرها صمت ثقيل، تجتران الآماً مكبوتة، الغموض يلف نظراتها التائهة، تتأمل المياه الزرقاء التي انجرفت، تخلي السبيل لمركبها .

- " أنت معي ونظراتك تضيع مني . " ...
- " بل أنا هنا معك . " ..
- " أرجوك دعيني أشبع من بريقتي . " ...
- " ماذا بك يا صارم ؟ " ...
- " سحرهما يغرقني . " ...

ومن داخل ردائها الأسود انتفضت برداً .

تأججت ذاكرة صارم بومضات نيران مشتعلة :

- " إني أعهد ذلك الرداء وصاحبته . "
- " رآه مراراً، تحسسه وذاب به عشقاً، تسربل برائحته التي غمرته حتى العظام، قبله فشفت شفتيه الملتهبتين من قروح الحرمان واللوعة .

- " ما أجمل هذا اللباس يا شمس ! "

- " أيعجبك حقاً ؟ "

- " بل يشعني ! "

ابتسمت له عندما تلاقت عيونهما للحظات .

أعرف هذه الابتسامة .

- " أسكر عندما تبسمين . " ..
- " بل إنه الكأس . " ...
- " لماذا تكرهينه إلى هذه الدرجة . " ...
- " بل أمقتة وأحقد عليه . " ...
- " لماذا ؟ " ...
- " لأنه غريمي . " ...

أومأت له بذراعها .

- هذه الذراع لها .
- " سوارك جوهرة خالدة حافظي عليه فهو شبكتك . " ...
- " أتشيكني بسوار ثمين . " ...
- " ماذا تريدين . "
- " أريد خاتماً منقوشاً بأسمك " ...

تقلدت نفس القرط.

- " لا تحبسي أذنيك بهذا القرط . " ...
- " لماذا ؟ " ...
- " لا أريد أن يسجنك أي شيء . " ...
- " لكنه لا يضايقتني أبداً . " ...
- " إنه يقيد حرיתי بالتوغل في شعرك . " ...

كلمته، لم يسمعها، أومأت إليه بالرحيل، القت تحية الفراق، قفز من مكانه مرتعشاً، احتقنت الدماء في وجنتيه، حمل قدميه نحوها، هرول خلفها لاهثاً، تعقب رحيلها وهي تغادر إلى الأفق البعيد، حاول أستنزار شجاعة الوثوب خلفها في المياه العميقة فخاتته قواه .

- " لماذا لا تتوقفين، أجنث لتغادري ؟ راعي ظروف ضعيف منك، أرجوك الإنتظار . "

حاولت تضيف شعرها المتناثر فلم تفلح، أخذها المركب مع هبوب الريح الغاضبة

...

" إصرخ يا صارم، نادها ، إنها لحظات وتختفي . "

ترك صوته في الأعماق والهلع يتوغل به حتى أوصاله التي اقتنصتها المفاجأة وروع المغادرة، لحظة التقاء الحياة بالموت، إنه يحسُّ، يسري بجسده، صيرورة الموت آتية لا محالة .

أحاطته الأوراق، الرسائل الشعرية، هي أيضاً ذهبت مع الريح، هي أيضاً، لن يفلح بانتشالها وضمها إلى صدره، كم أراد إيداعها مع حصيلة ذكريات الماضي في خزانة مكتبه، ها هي تتسكع أمامه، تنبسط لها على حافة النهر، الكلمات الخالدة تعمها الفوضى، تجن فتتناثر على سطح المياه تتدفق الأمواج، تقودها إلى بقعة المجهول، تأخذ معها الأحلام من أعماق الذاكرة، تسرق لحظات الوعود، تنبيه به، تتخبظ فتختلط الدموع بالحبر الرقراق، لم يكتب لها الجفاف، انطلقت حيث الغروب، تختفي كأنها لم تكن أبداً، تأخذ بمعيتها عهداً لم يتحقق في زمن النهايات، تنقض العهد .

بينما يتفرسها، يحاول إيقافها منادياً فتتعثّر كلمة وحيدة في فمه ش .. مو ..س

...

انتهت



مع تحياتي يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية  
Syrian Story